الأدب الإسباني

تأليف
جان كامب

ترجمة
بهيج شعبان

دار بيروت
للطباعة والنشر
بيروت ١٩٥٦

مقدّمة

الادب الاسباني كثير الغنى بشكل يضطرنا هنا الى ان نلقي عليه نظرة سريعة ، متوسعين بالكلام على اسمائه الكبيرة ومؤلفاته الاكثر تمثيلاً .

وسيبحث الرجل الفاضل في زمننا دون شك ليعرف كيف ولدت مجاري التفكير الكبرى التي اجتازت هذا الادب خلال الاجيال ، وتحت اي اشكال ظهرت ، وكيف تطورت واختفت، واستُعيض عنها بمجار اخرى اكثر قرباً من حساسية كل عصر وذوقه .

وبالنتيجة فاننا نرى ضرورة اجراء محاولة تركيبية. وسنرى، اذا قمنا بذلك ، كثيراً من المؤلفين والمؤلفات التي كان لها حظ من النجاح في زمنها ستصبح مهملة ، او لن يشار اليها سوى اشارة عابرة .

وماذا يهم ذلك ما دامت الاعمال الخالدة والخالقون الكبار يظهرون في تتابع القرون على علوّ وضعهم فيه الزمن واعجاب الناس! اننا لا نطمع بسوى ان نرسم هذا المخطط بشكل متقن، بقدر الامكان، وان نفسح للقارىء المجال ليعرف بصورة اكثر مباشرة تلك الذرى التي سنصفها له.

وتبدو الادوار الكبرى للتطور الادبي الاسباني انها تقسم الى ستة اقسام: القرون الوسطى؛ النهضة؛ القرن الذهبي؛ الكلاسيكية الجديدة؛ الرومانطيقية؛ العصر الحاضر، وسندرسها بالتتابع. وهناك فصل اخير خصص للادب باللغة الكاتالانية الذي انتج في عصور مختلفة، وفي ايامنا هذه على الخصوص، مؤلفات ذات قيمة بشكل يلائم هذا الادب.

الفصل الاول

القرون الوسطى

ان اللاتينية العامية او Sermo rustica التي حملها المستعمرون الرومانيون الى شبه الجزيرة الايبرية قد فسحت المجال لولادة اللغة الكاتالانية، والغاليسية المتبلورة في اللغة البورتغالية الحديثة، واللغة الكاستيلية .

وهذه اللغة الاخيرة يتكلمونها في المنطقة الوسطى من البلاد، وقد فرضت نفسها بفضل سيطرة كاستيليا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر واصبحت هي اللغة الرسمية المكرسة للادب.

ويحتمل ان تكون اللغة الجديدة المسماة « الرومانس » الكاستيلية هي التي كانت سائدة في زمن الغزوة العربية (سنة ٧١١) . ولكن الوثائق الادبية الاولى تعود الى ما قبل القرن الثاني عشر ، وكتاب « **كنتار دي ميو سيد** » Cantar de mio Cid المكتوب سنة ١١٤٠ هو الشاهد الاول المعروف .

١ – **الشعر الملحمي** : انـه يضم ويختصر الخطوط الاكثر بروزاً في القرون الوسطى الادبية ، كالروح الدينية ، والنزعـة الواقعية ، والنشاط ، والتنوع ، والعاطفة الشعبية الممزوجة على الغالب بالاعمـال العلمية . وسيتميز العصر ، في اعمال اخرى ، بثبات ذلك التقليد الملحمي ، وبالتأثيرات الشرقية والبروفنسالية والغاليسية البورتغالية ، واخيراً بالاتجاهات الاخلاقية والهجائية.

ومن الطبيعي ان تظهر الاستلهامات الملحمية قبل غيرها . وهي لا تهتم بعلم النفس والملاحظة ، وتجهـل القلق الداخـلي في الانسان الفردي . ولكنها تلقائية شعبية تنشد العواطف العنيفة الجماعية لقبيلة او عرق ، وتميل الى تجسيدها في بطل .

ومهما كان أناس العصر الكاستيلي فانه وجد ارضاً ملائمة في اسبانية القرون الوسطى المؤلفة من ممالك ، متحدة او متعادية، في دور التشكيل ، تتحد تارة ضد العربي (المور) المجتاح ، عدوها المشترك ، وطوراً تقف الواحدة ضد الاخرى في معارك تهدف الى التقسيم والسيادة . وهكذا سيطرت عليهـــا الحرب بصورة دائمة ؛ وتكاثرت فيها المفاخر الشخصية ، وتغلبت مخيلة الشعب فاخذت تثير وتنقل هذه المفـاخر من فم الى فم في سبيل تكوين وادهاش مستمعين ابلاهم الزمن .

وانتقلت « **اناشيد المفاخر** » Cantars de gesta بسرعة ، بواسطة مردديها الافـاقين . وأحب **الجوغلار** Les Juglars ان يطوفوا الارض مـن قصر الى قصر ، ومن مكان الى آخر ،

لينشدوها . فانتشر التاريخ بفضلهم وتزخرف ، واصبح اسطورة بنّاءة محرضة .

وسيعود ابطال هذه الاناشيد بعد ذلك من الاسطورة الى التاريخ بواسطة تطورٍ يناقض ما تعرضوا له اولاً ، فقد اراد المؤرخون الاولون في القرن الثالث عشر ، وهم مفرضون اكثر منهم علماء ، ان يؤلفوا قصصاً صحيحة جديرة بالثقة من حوادث الماضي . وحل النثر محل الشعر ، واصبحت انشودة المفاخر « خبراً » يهدف الى اعادة بناء تاريخ البلاد .

٢ ـ قصيدة السيد : هذه الجدة للملحمة الوطنية ، المؤلفة في القرن الثاني عشر ، والمنقولة عن مخطوطة من القرن الرابع عشر ، والمنشورة سنة ١٧٧٩ ، هي القصيدة الحقيقية عن استعادة البلاد ، وكاتبها لا يزال مجهولاً .

ولا يبحث موضوعها في شباب البطل ، ولا في غرامياته الخالدة بواسطة **كاسترو** و **كورناي** ، ولكنه يدور حول صورة سامية للفاتح في سن النضج : ان رود ريغ ، وقد نفاه الملك الفونس السادس حين جرحه في كبريائه الغيور ، ترك بيفار وتحول الى بورغوس مع جنوده ، فنبذته هذه المدينة خوفاً من العاهل . وهكذا بدأ اعماله البطولية ، بعد ان ترك زوجته وابنتيه في دير سان بدرو في كاردينيا ، وحقق سلسلة من المآثر ، واستولى على بلنسية التي ستصبح منذ ذلك الوقت بلنسية السيد ، وزوج ابنتيه من ولدي ملك كاريون . ولكن هذين سلكا

سلوكاً شائناً مع زوجتيها ، فطلب السيد اقامة حدود الله ، وعاقب مناصروه المجرمين ، وتزوجت البائستان زواجاً جديداً من ولدي ملك النافار والاراغون . وتكلل السيد بالمجد ومات في بلنسية سنة ١٠٩٩ .

واقسام القصيدة الثلاثة فيها وحدة جميلة ، وتنطوي على مشاهد ذات عظمة قاسية مؤثرة. وقد ذاب فيها التاريخ الحقيقي والاسطورة بشكل مرض ، وهناك اكثر من مقطع مزجت به القوة الملحمية والتأثر الغنائي الاكثر صفاء . وفي القصيدة اوصاف لكثير من العادات اغنتها وزينتها بواقعيتها الصحيحة .

ويشتمّ منها على الخصوص عاطفة وطنية ملتهبة ، ووفاء للملك ، واخوة السلاح ، وحمية النضال ضد المجتاح ، وحب العائلة ، وتلك الروح الفروسية التي سيعبر عنها فيما بعد بكثير من الاعمال والمآثر .

٣ ـ **اناشيد مفاخر اخرى :** هناك اناشيد ملحمية اخرى غير قصيدة السيد . ونذكر منها واحدة اكثر مأساة ، هي « مفخرة ابناء لارا » التي اعاد بناءها **رامون ميناندز بيدال** ، وتعود الى القرن الثاني عشر. وهذه القصة المحزنة تسرد حكاية سبعة اخوة ذبحوا وقطعت رؤوسهم بامر من الكونت **روي فيللازكيز** .

واللحظة الاكثر افجاعاً هي تلك التي وقف فيها والدهم

غونزالو غوستيوز امـــام المقتولين ، ممسكاً بيديه « الرؤوس السبعة المحبوبة » لاولاده ، الواحد بعد الآخر ، واخذ يكلمهم كأنهم لا يزالون احياء . وقد ولد له من غرامياته في الأسر ولد جديد ، هو مودارا المنتقم ، الذي سيقتص من الخيانة التي ذهب اخوته ضحيتها .

وهذه الاسطورة ذات النزعـــة الواقعية العنيفة هي حكاية مأساة عائلية تؤثر في النفوس في عصر بربري ، واشعارها تتضمن وصفاً مرعباً اميناً ، وقد استعملت للمسرح واشعار الرومانس الشعبية خلال العصور .

٤ — **مستر دي كليرسيا** Le Mester de Clerecia : يفهم بهذه العبارة المدرسة الادبية التي يمثلها الادباء في القرون الوسطى ، اي رجال الدين والعلمانيون الذين كرسوا انفسهم للادب .

واول شاعر كاستيلي معروف هو غونزالا دي برشيو المولود في ريوجا ، وكان شماساً سنة ١٢٢٠ ، وقساً سنة ١٢٢٧ ، ومـات متقدماً بالسن حوالي سنة ١٢٦٨ . وتتناول مؤلفـاته ثلاث حيوات للقديسين (سانتو دو منغو دي سيلوس ، سان ميلان ، سانتا اوريا) ، وثلاث قصائد طويلة مخصصة للعذراء ، وثلاثاً اخريات ذات موضوع ديني .

ومع ان برشيو كان شماساً فقد اعلن انه لن يكتب باللاتينية ، وانه جوغلار كأسلافه . وقد برهن عـلى ذلك باسباغه الصفة

الشعبية على قصصه عن اخبــار القديسين ، وبلغته الغنية الحية . ووشّى كتاباته حول اعمال عجائبية منسوبة الى العذراء بما لا نهاية له من المتنوعات المحظوظة .

الليبرو دي ابولونيو – هي قصيدة في الفين وستمئة واثنين واربعين بيتاً ، تنسب الى عالم اراغوني ، ومستوحاة من رواية اغريقية مجهولة ، وتسرد اسطورة شرقية قد انتشر موضوعها في كل اوروبا .

ان ابولونيو ملك صور أجبر على ترك مملكته . وظن ان امرأته ماتت وابنته في قبضة القراصنة . وقد وجد الاثنتين بعد كثير من المغامرات ، وادركته شيخوخة سعيدة في مملكته التي استعادها .

الليبرو دي الكسندر – هــذه القصيدة الفخمة تقص حيــاة الاسكندر ملك مقدونيا . وقد حاول ناظمها ان يربط بين حوادث مستعارة من مصــادر مختلفة جداً . وفعل ذلك بقريحة عجيبة برزت في اوصاف تصويرية مشوقة .

وتدلنا هذه القصائد المتنوعة على ان الشعر لو ثابر على بقائه ملحمياً لوسع حقل عمله بشكل غريب ؛ ومؤلفوها ادباء ذوو فنية واضحة ، يملكون جميع معارف عصرهم ، ويغترفون من المصـــادر المألوفة يومذاك : الشرقية ، والمصدر الكلاسيكي ، الكانتار البدائية ، الاسلامية . وقد اشبعت مواضيعهم المترجرجة

من كفاح عالم ولد حديثاً بتذكارات العصور القديمة ، وذهبوا يبحثون، في حمية ايمانهم، عن عنصر هام من الفائدة والاستلهام.

٥ — **الفونس العاشر إلسابيو** : اي الفونس العاشر العالم ، خليفة فرديناند الثالث القديس. انه الممثل العجيب للقرن الثالث عشر الذي شهد امتزاج ثلاث ثقافات دينية معاصرة — المسيحية واليهودية والاسلامية — في خصومة مثمرة لحياة الروح .

والاستيلاء البطيء على ارض الوطن لم يمنع التبادل الفكري الذي كان كثير الفعالية ، فمدرسة طليطلة للمترجمين كانت ، مع غيرها ، ندوة حقيقية للمعرفة في عصر جشع وفي توسيع حقل معارفه . وفي اسبانية شرح ابن رشد تعاليم ارسطو وسعى ليجعل العلم والدين منسجمين ثم يخضع الاول لحكم الايمان . وتدفق شارحو المعتقدات المتنوعة، بفضل هذه المدرسة، لينتهوا الى ما انتهى اليه القديس توما الاكويني . وليس بصحيح ان الحياة الروحية في هذا القرن كانت ضعيفة ، لان جميع فروع الثقافة قد ازدهرت ، وظهر النثر لاول مرة في قصص التاريخ الكبرى، وأنتجت العلوم عدة مؤلفات تعليمية ، وتألفت كتب القوانين وتنسقت، وكثرت كتب الاخبار والحوليات، وهبت ريح الشعر الغنائي .

وما مثير كل هذه الحركة الفكرية العظيمة الاهمية سوى الفونس العاشر السياسي الفاشل والملك الضعيف ، ولكنه الاديب الكبير امام الخلود .

وقد كتب هو نفسه باللغة الغاليسية ونشر كتاب « لاس كانتيغاس دي سانتا ماريا » وهو مجموعة في اربعمئة وعشرين مقطوعة شعرية على شرف العذراء. ولهذه المجموعة شكل شعري مستعمل عند عرب اسبانية يدعى الزجل، وقد نشأ في الاندلس في بدء القرن العاشر . والمجموعة مخصصة للغناء ، وكثير من اشعاره يفتن بغنائيته البسيطة الحزون .

والفونس العاشر ، كمولع بالتاريخ ، قد استلهم كتابة « التاريخ العام » الذي يحتوي على ملخص لقصص التوراة منذ بدء الخليقة حتى موت موسى. ولكنه وجه كل اهتمامه الى « الكرونيكا جنرال » اول محاولة في تاريخ اسبانية ، واهتم ولده سانش الرابع بمتابعة العمل وانهائه . وهذه المحاولة مجموعة منتخبات تظهر فيها ، وخصوصاً في القسم الاول ، عمومية الثقافة وروح الملك . وهي المحاولة الاولى في مزج التاريخ الروماني وتاريخ اسبانية الذي كان يعتبر تاريخاً للقوط حتى ذلك الوقت .

وكانت « الكرونيكا جنرال » سبباً في تدفق سلسلة من الاخبار باللغة العامية ، ونثر قصائد ملحمية سابقة يذوب فيها العنصران التاريخي والملحمي في حالة تعد وحيدة في الآداب الاوروبية ، وخلقت ايضاً النثر الكاستيلي التاريخي ، ووجهت اهتمامها لتعكس الحياة القومية اكثر من سرد المآثر الشخصية للملوك .

ولكن عمل الفونس العاشر الرئيسي هو في تحقيق كتاب قانوني ذي اهمية متناهية : « لاس سييت برتيداس » .

اما فرديناند الثالث فقد ترجم الى اللغة العامية مجموعة القوانين القوطية والرومانية المعروفة باسم فويرو جوزغو Fuero Juzgo ، والتي كانت القانون الاساسي لمملكة القوط . واراد ولده، وهو يتابع هذه المهمة ، ان يوحد التشريع ويقدم لجميع رعاياه وسائل معرفة الحقوق والواجبات .

وكتاب « لاس سييت برتيداس » يفي بهذا الغرض ، فهو بمحتوياته — قانون مدني وجنائي — ذو اهمية عظيمة . وبشكله ، جاءت لغته ذات نثر بديع تجد فيه الايجاز والإحكام اللذين تتطلبهما النصوص القانونية ، كل ذلك الى جانب مذاق المنتجات الشعبية ورونقها .

٦ — دون جوان مانويل (١٢٨٤ — ١٣٤٨) : ان هذا السيد الكبير هو ابن ملك الكاستيل، وابن اخي الفونس العاشر، وحمو الفونس الحادي عشر. وقد وجد فسحة من الوقت، رغم حياة قضاها في الحروب الاهلية والغزوات ضد العرب، ليكتب سلسلة من المؤلفات التعليمية ذات وتر واحد تدور حول مواضيع متنوعة جداً .

وكتابه الاكثر اهمية هو « الكوند لوكانور» او الليبرو دي باترونيو . وهو مجموعة تضم خمسين مثلاً في الحقائق الاخلاقية

ذات الاتجاه التربوي ، وقد شحنت بتلفيق فاشل من صنع مؤدب ومستشار لاحد الامراء يقدم لسيده الشاب سلسلة من التعاليم الاخلاقية التي تجيب بواسطة الامثال على جميع الاسئلة الملقاة ؛ وكل مثل ينتهي ببيتين من الشعر يشرحان المغزى الاخلاقي. ويعد هذا الكتاب اول مؤلف قصصي ذي قيمة ظهر في الادب الاسباني .

ويوجد في الادب التاريخي كتاب عجيب هو « فتح اولترامار الكبير » ، وهو شائق جداً بالاساطير التي يتضمنها والحوادث الحقيقية التي يصفها . انه تاريخ الحروب الصليبية حتى سنة ١٢٧١ ، وبصورة رئيسية تاريخ غودفروا دي بويون المسمى هنا « فارس البجعة ». وليست الاسطورة التي يرمز اليها هذا اللقب سوى اسطورة **لوهانغرين** التي جعلها فاغنر شهيرة .

٧ — **جوان رويز رئيس كهنة هيتا** : هو الاكليريكي الصالح مؤلف اشهر كتاب في القرن الرابع عشر: **الليبرو دي بوين آمور** . وقد ولد في الكالا دي هناريس ، مثل سرفنتس، وعاش فيها . وسجن في طليطلة بامر من رئيس الاساقفة ، ولم يكن قد اصبح رئيس كهنة في سنة ١٣٥١ . ولا يعرف متى ولا اين انتهت حياته .

والقصيدة الفذة التي تركها لنا تحت عناوين مختلفة هي خليط مدهش . وتهدف كما يبدو الى ان تحذرنا من الحب المجنون ، وتبدو ايضاً كأنها سيرة للمؤلف كتبها بنفسه ، ملأى بالاوهام،

وطافحة بالحدة والرموز والاساطير والدعابات الروحية ومهاجمة معاصريه بعنف ، والجسارة المندفعة .

وفيهـا رواية تصف عادات الخداعين والسارقين شعراً ليس بطلهـا سوى الكاتب نفسه ، وفيها امثال اخلاقيه عديدة ملأى بالحمية والخبث ، واستطرادات اخـلاقية تشبه مواعظ اوفيد . وقد مزج جوان رويز كل هذه العنـــاصر في نظم لطيف ذي مقاييس متنوعة عمـل منه قصيدة ذات مزاج رائق وحمية قوية تشبه في شكلها الخارجي مؤلفات مستر دي كايرسيا .

وتبدو الليبرو دي بوين آمور انها تعكس الانحلال الاجتماعي في عصرها بامـانة واخلاص . وهي هجاء مسلٍّ ولكن معانيها تذهب بعيداً . وجسّد فيها المؤلف الاخلاق والروح بنوع من السخرية العالية التي تكوي بشدة اكثر من السخط العنيف . وذوق الانشاء المعبر ، وقوته ودقته، مضافة الى تلك العبقرية التي تظهر على كثير من الصفحات، تجعل من هذه القصيدة، التي تظهر فيها شراسة رابله متحدة مع سذاجة لافونتين الزائفة ، اعجب الكتب التي مهدت السبيل امــــام هذا النوع من المؤلفات التي تصف عادات الخداعين والسارقين .

الفصل الثاني

النهضة

(القرن الخامس عشر ، من حنا الثاني الى شارلكان)

العصر — ان الاضطرابات الاهليـة والحروب الداخلية واقتتال الاسر المالكة الذي يميز هذا العصر لم تتوصل الى ايقاف اندفـاع النهضة الكبير الذي سيتفتح في العصر الذهبي بشكل مدهش . فهنـــاك ملوك غير جديرين بالملك تركوا السلطة بين ايـدي حـاشية رديئة ، وقوى الشعب ذابت في اضطرابات لا مجد لها . ولكن حوادث متألقة اتت تلقي اضواء ساطعة على هذه الفوضى .

لقد استولى الفونس الخـامس على نابولي سنة ١٤٤٣ وجعل من هذه المدينة مركز ثقافة عـاملة . وحين تثبت نفوذ اسبانية في ايطـالية نشرت هذه تأثيرهـــا المفيد في الادب الاسباني ،

فترجمت آثار دانتي وبترارك وبوكاس ، وقلدوا وسلبوا ايضاً . وزودوا جيرانهم بمباحث متنوعة واشكال جديدة للتعبير . ورأينا بفضلهم بروز اصالة الروح الاسبانية خلال التأثيرات الاجنبية القوية اذ نجحت هذه الروح في « اسبنتها » . وعهد «الملوك الكاثوليك» الذي وطد الوحدة الوطنية سجل قمة المدنية الكاستيلية . واصبح بلاط هؤلاء الملوك ملتقى للادباء والفنانين، واهتمت الملكة نفسها باللاتينية واستعانت باساتذة اجانب ، وتبع النبلاء ، مختارين ، مثل ملوكهم وناصروا العلماء والكتاب .

ولبى اختراع المطبعة هذه الرغبة في الثقافة بشكل غريب حيث سهل انتشار المؤلفات . ويعتقد ان الكتاب الاول طبع في بلنسية سنة ١٤٧٤ ، وهو ديوان شعر يمجد العذراء . وثبت الطابعون اقدامهم بعد ذلك في المدن الهامة .

وفي الوقت نفسه اثبت الفن الاسباني حيويته باعمال تستحق الاعجاب . فكاتدرائيات ليون León وطليطلة وبورغوس وبرشلونة رسمت في سماء شبه الجزيرة قصائدها الحجرية الساحرة. وازدهر الفن الموديجاري mudéjar في الكاستيل والأراغون. واصبح كل شيء برهاناً على زينة جريئة فاخرة .

والعصر مترهل شهواني ، يسرف في الحفلات الفخمة رغم بؤس الشعب ، ومع ذلك فقد صنع الملوك الكاثوليك عالماً جديداً، مقوين السلطة الملكية ، فارضين ايماناً واحداً على جميع

ورعاياهم ، ونجحوا في استعادة البـلاد بالاستيلاء على غرناطة سنة ١٤٩٢ ، وفي السنة نفسها فتحوا لبلادهم تلك القارة الفسيحة التي رسا بها كولومبوس .

وحمل اليهود الذين طردوا من البلاد معهم تقاليدهم واغانيهم ولغتهم . فانتشرت اللغة الكاستيلية بفضلهم . واحتفظ بهـا في اليونان وتركيا وجزر البحر المتوسط حيث لا تزال تتردد الاغاني الشعبية لذلك العصر في ايامنا هذه .

٢ ـ **الكانسيونيروس** Les Cancioneros : هـــذه هي اسماء الدواوين التي نقل اليها على وجه التقريب كل الشعر الغنائي لذلك العصر. والاكثر شهرة هي **كانسيونيرو دي بينا** (١٤٤٥)، **وستونيغا** (بعد سنة ١٤٥٨) ، **والكانسيونيرو العــام** سنة ١٥١١ ، **وريزندي** (١٥١٦) . وهي الشواهد على فن شعري لطيف ، مجمعي ، وصناعي . انه شعر انيق في غالبيته ، ودقيق ايضاً ، ولكنه اصطلاحي خال من الطبيعة ، يتعرض للمؤثرات البروفنسالية والايطالية والعصور القديمة .

وغومز منريك هو افضل شاعر في ذلك العصر. ولكن ابن اخيه، جورج منريك (١٤٤٠ – ١٤٧٨)، اخفى مجده بقصائد شهيرة هي احد الآثار الاكثر كمالاً في اللغة ، وله قطعة حول موت سيد سانتياغو، والده، تترجم بدقة حزن الروح الكئيب لفكرة عدم استقرار الامور البشرية . وقد قلّدهـا **كاموانس** Camoëns ، وشرحها الشعراء ، وترجمت الى جميع اللغـات ،

وهي تشرح جميع القضـــايا المشتركة التي تشكل اساس فلسفة فيلون Villon . وكل هذا يبقى عديم الجدوى لو لم تكن قد تحلت باتقانٍ جعلها تحتفظ الى ايامنا هذه ، بفضل بساطته ونبرته المؤثرة ، بجميع قدرتها على التأثير ، وستظل محتفظة بهذه القدرة في جميع العصور الآتية .

٣ ـ فيللانا Villena : هنري داراغون الملقب خطأ مركيز فيللانا (١٣٨٤ — ١٤٣٤) كان اميراً ملكياً عجيباً في حياته وبمؤلفاته الادبية . فقد كتب في المواضيع الكثيرة الغرابة ، معالجاً بنظرة شريرة امراضـاً او احكاماً نظمهـا شعراً متقناً . وادخـــل الى اسبانية فنيـة البروفنساليين والشعراء الجوالـين التولوزيين، وجرب، في فضوله الشامل، السحر والتنجيم، وتحمل وطأة ذلك حتى ان مكتبته أحرقت بعد موته . وتعزى اليه الترجمة الاولى للانيادة والمهزلة الالهية . وقـد اشغلت شخصيته المجنونة كثيراً من كتّاب العصر الذهبي ، وعــلى الخصوص كوفيدو .

٤ ـ سنتيللانا Santillana : اينيغو لوبز دي منـــدوزا (١٣٩٨ — ١٤٥٨) المعروف باسم مركيز سنتيللانا ، جلب الشهرة، قبل جيل بلاس ، الى المدينة الجبلية الصغيرة التي منحته اسمها . وقام بدور فعـــال في الاعمال العامة ، وترك مؤلفات مخطوطة عظيمة .

واشعاره الفصيحة ، الاخـــلاقية ، اللطيفة ، تتعرض لجميع

المباحث الميتافيزيكية الغرامية. وقصائده البترار كية، المصطلحة نوعاً ، هي الاولى من نوعها في اسبانية . ولكن هذا الشريان العلمي التقني بهت امام مؤلفات المركيز الشعبية التي لا تزال تقرأ بلذة. وتلك « الامثال المئة » لا تزال تعمر ذاكرة فلاحي جبل سانتندر . وقصائده المسماة سرّانيلاس Serranillas ، والتي نسجت على منوالها « كانسيونس دي اميغو » الغاليسية البورتغالية ، قد احتفظت بطعم محلي ريفي كثير اللذة ، بما يذكرنا بقصيدة فاكيرا ديلافينوجوزا البديعة . وهذه القصائد السائغة الخفيفة ، كالينبوع الذي سالت منه ، تتحدى بطعمها الذي يشبه طعم ثمرة برية ، الطرق المتغيرة والزمن .

٥ ـ **جوان دي مينا (١٤١١ – ١٤٥٦)** : ولد في قرطبة مثل غونغورا ، ودرس في سلمنكة ، ولمع في بلاط جان الثاني حيث قضى افضل سني حياته .

وله قصيدتان كبيرتان : **اللابيرانتو ولاكوروناسيون** . فاللابيرانتو خيالية تقلد جنة دانتي ، ذات رمزية سهلة اصيلة . ولكنها ذات عاطفة وطنية حادة ، ونظرة صحيحة للوحدة الوطنية ولمثاليةٍ اسبانيةٍ متجسدة في شخص الملك .

والكوروناسيون مديح للمركيز دي سنتيلانا الذي منحته ربّات الشعر الاكاليل الاخضر . وهي رتيبة غامضة تتطلب تفسيراً موضحاً في كل لحظة .

ومع ذلك فان جوان دي مينا يستعمل نظماً سهلاً يرتفع في بعض الاحيان الى مرتبة الشعر الحقيقي، وكان مثار الاعجاب في القرن السادس عشر ، واعتبر كمؤلف كلاسيكي ، حتى انه دعي « اينوس[1] » الاسباني .

٦ ـ **الروما نسيرو** : وجدت الملحمة الكلاسيكية ذات الاصل الجرماني ارضاً خصبة في اسبانية ، حتى انها خلقت نوعاً جديداً يفيض بالحياة هو **الرومانس**. فقد كانت الروح الكاستيلية، الديمقراطية في اعماقها ، بحاجة الى ملحمة بسيطة مقتضبة بعد ان تطرقت الروح الوطنية في المعارك القاسية على الحدود الاندلسية.

وكان الشعب قد اختص بشعر الكنتار دي جستا « نشيد المفاخر » الذي انشيء للنبلاء . وبعد سماعه الجوغلار اخذ من اغانيهم الابيات الاكثر قيمة والمقاطع الاكثر بروزاً، ثم رددها غيباً بعد ان حورها على هواه ، وهكذا ولدت اقدم مقاطع الرومانس التي نعرفها .

وتمتاز الرومانس بالنادرة التصويرية ، وفقدان بداية العمل ونهايته، وكل منها قصيدة صغيرة عرضية في اساسها ، مؤلفة من بعض ابيات مستقاة من اغاني المفاخر ويضاف اليها في الغالب ابيات اخرى لاكمال القصة التقليدية ، او لتأليف قصة جديدة ، وفقاً لاهواء المؤلف . ولكن الشكل يبقى هو نفسه دائماً في

---

(١) كنتوس اينوس : اقدم شعراء اللاتينية (٢٣٩ ـ ١٦٩ قبل المسيح) وهو اغريقي المولد . (المترجم)

ايجازه المؤثر : شعر يتألف من ثمانية مقاطع ، الفردي منها حر والزوجي ذو سجع متجانس . وهذا هو الشعر الوطني الجيد . اما المستعمل في الارتجال عند العـــامة فهو الذي ينصرف الى الحكاية وسرد الاعمال بصورة مباشرة، وهو بهذا اكثر استساغة من ان يُجمع بقاعدة واضحة .

وكانت حياة الامة السياسية والحربية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر موضوعاً لهذه التآليف . وقد قدمت الحرب ضد العرب للرومانس مستنداً منقطع النظير ، بحيث بلغت الاوج يومذاك . وحين اكتشف كولومبوس العالم الجديد كان دور الرومانس الخـالق قـد مضى ، واصبحت الملحمة عرضاً قومياً محصوراً في شبه الجزيرة . ومع ذلك فان الرومـانس انتشرت انتشاراً واسعاً في كل مكان في القرن السادس عشر، وفرضت اثراً ادبياً عميقاً ، واصبحت حجر رحى شعرياً كثير الاستعمال بعد ان ادخل عليها الكتّاب مهارة ملأى بالفن، وسذاجة نصفها صادق ونصفهـا متصنع ، وحنيناً الى الزمـن القـديم الطيب ، وكبرياء في عواطف الفروسية ، ودقة في التفكير لم يعرفها الاولون .

والرواج المفرط لهذا النوع حتم الانهيار في القرن السابع عشر . ومع ذلك فان الرومانس شكلت المسرح الاسبـــاني المولود حديثاً ، واحتفلت في **الكورال** Corrales مع لوب دي فيغا وغيلن دي كاسترو . وحـــين فرضت الرومنطيقية

نفسها غنت الرومانس على هذا اللحن التقليدي الساعات الكبرى وانتفاضات الوطن العظيمة .

والرومانسيرو ديوان يضم كل الرومانس التي بقيت محفوظة حتى نهـــاية القرن السابع عشر ، شفهية اولاً ثم مكتوبة على اوراق طـائرة ، ثم مجموعة في « غنائيات » في منتصف القرن السادس عشر . وقـدمت الينـــا الشعر الشعبي والفولكلوري (المتعلق بالتقاليد والعادات الشعبية) الاكثر غنى .

والرومانسيرو ، في مجموعها ، احد ثلاثة او اربعة آثار اصيلة كبيرة في الادب الاسباني . وهي منجم وثائق للمؤرخ، وحقل ابحاث لا نهاية له للعالم ، وينبوع لا ينضب من الشعر للاديب . وابهة التاريخ الاسباني موصوفة فيها بحماسة جافة قاسية لا تخضع للفخفخة والتكلف . والعواطف فيها مباشرة ، صادقة ، عارية، كثيرة التأثير. ووجه الشعب المحرك للعواطف ينعكس فيها بنبل واضح عنيف ، بكل خطوطه العرقية واصالته الحية . وقد قال فكتور هيجو عن الرومانسيرو انها الياذة باختصار عادل: الياذة مقطعة ومقسمة الى الف قصيدة ، واسطورة القرون التي طرّقت وحدة البلاد بضربات بطولية شديدة ، وصور ذات ميدان سام لابطـال حقيقيين او اسطوريين ، المبت روح شعب بكامله . واغترف المسرح والشعر الغنائي بملء الايـدي من هذا الكنز الذي لاينضب . واقتسمت الرواية عند الشعوب الغربية اسلاب

الرومانسيرو ، حتى اصبحت روح اسبانية الابدية تختلج في كل مشعل .

٧ ـ **الادب الروائي** : ان المجرى الروحي الذي يسير متوازياً مع المجرى الواقعي قد احدث ظهور نوع ادبي جديد كان نجاحه ساحقاً : هو رواية الفروسية . فقد انتهت القرون الوسطى من خلق مثلها الاعلى في شخص البطل الفردي الضارب في الارض وذلك لتدافع عن قيمها الاساسية التي تراها تنهار من حولها . فقيمة الفروسية، وعاطفة الحرب الضرورية، وتذوق المغامرة التي لا غنى عنها في جعل الحياة لاذعة ، والحب الواله للسيدة الكاملة ، هي القواعد الاساسية التي ترتكز عليها سيكولوجية الفارس النبيل .

ومن ناحية اخرى، فان مجتمع القرون الوسطى قد انغمس في الفساد والعيوب ، وسيطر الظلم والاستبداد في كل مكان ، ولهذا وجب وجود اناس منفردين يصبحون قدوة ، ويذهبون بدافع من مثاليتهم ليعيدوا الى مكان الشرف الفضائل الاصلية التي تشكل اخلاقية العصر المنصرم .

وهي مهمة شاقة تلك التي يريدون بها الاحتفاظ برونق قيم باطلة لماض زائل ، والكفاح ضد مستقبل يبدو انه نفعي ومحدود. الم يكن الاعداء الاردياء لهذا الجنون الكريم هم ممثلو العدالة والسلطة ؟ ان الابطال الروائيين سوف يهزون رماحهم منذ القرن الرابع عشر في سبيل الحقيقة والحق، وسيسعون لتحل

مآثرهم الفردية محل الانسجام الاجتماعي السابق المنهار .

واقدم هذه المؤلفات تقريباً واشهرها بالتأكيد هو كتاب **اماديس دي غول** الذي ألف سنة ١٤٩٢ ونشر سنة ١٥٠٨ . فمن اين اتى ؟.. يمكن ان يكون من البورتغال ، او من فرنسا ، او من الدور البريتوني . ومهما كان الامر فان هذا النوع لم يصبح شعبياً حقيقياً في اسبانية الا في ترجمة **غارسي اوردونيز دي مونتالغو** . فقد جمعت عناصره الاساسية بفضل هذا الاخير ، من قيم علوية وخصائص اساسية للفارس : حب البطل الاثيري الكامل لجميلته ؛ والاخلاص للملك .

ويشير هذا الى اية درجة تتلاءم مستلهمات العصر مع التعطش للمغامرة ، وجاذبية الاحلام ، والنوافذ الكثيرة المفتوحة على المدهشات . وبعد ، الا تشير الفتنة التي فرضها هذا الادب على نفس القديسة تيريز الفتية الى قسم من العناصر التي سوف تحيي فيما بعد مؤلفات الصوفيين ؟..

وما من شك في ان اسبانية لم تكن مسقط رأس هذا الادب ولكنه نما فيها اكثر من نموه في غيرها ، ونجاحه نفسه يشير الى مدى تجاوبه مع المستلهمات العميقة لشعبٍ وعصرٍ برمتهما .

الفصل الثالث

العصر الذهبي

١ ـ العصر: ان القرنين اللذين يؤلفان العصر الذهبي الاسباني يمثلان من الناحية السياسية خطاً منحنياً واضحاً . فاسبانية التي لم تكن تناضل لتوحيد اراضيها في القرن السادس عشر مدت سيطرتها على عالم تريد ان تفرض عليه مثاليتها الدينية والملكية. وقد ضم ملك شارلكان وفيليب الثاني دولاً لا تغيب عنها الشمس، ولكن سلطتها غير العادية بدأت تضعف منذ القرن السابع عشر ، اذ امسك فيليب الثالث زمام السلطة بضعف على اراضي والده الواسعة . وزاد الانحطاط في ايام فيليب الرابع ليصل الى ضعف عميق امتاز به حكم شارل الثاني .

ومع ذلك فان القيم التي برزت في عصر النهضة اكسبت الثقافة وجهاً جديداً . فالنزعتان الانسانية والايطالية مزجتا

مجاريها وبدلتنا روح البحث وروح الابداع . والعقل الفردي نزع نير « السلطات » واصبح واعياً نفسه ، واراد ان يرى بعيني نفسه .

وتبدل كل شيء واستنار : فالارض بدت اكثر اتساعاً واكثر حقيقة في عيون العلماء والبحارة ، وانهار الكثير من المعتقدات العلمية ، ووجب اعادة البنـــاء على اسس معطيات جديدة . ولم يكن هناك من شيء يميز افلاس القرون الوسطى باكثر من هذا الوضوح وكذلك معنى النزعة العصرية الارتيابية الحكيمة التي آمنت بحقيقة مستوحاة من الملاحظة والعقل .

ومـا من شك في ان اسبانية آل هابسبورغ ستجذف ضد هذا المجرى . انهـا ، وهي بطلة تقليد اخذ يهتز ، ستنهك نفسها ببطولة في جميع ميادين القتال ، وسترى مراكبها تغرق واراضيها تتوزع . وهكذا سجلت معركة روكروا سنة ١٦٤٣ نهاية التفوق والنفوذ العسكري لاسبانية في اوروبا .

ولكن الآداب والفنون تبعت عظمة الامبراطورية وتألقها . فقد عرف ذلك الشعب المتحد ، القوي الغني ، ان يتدفق فنـاً ادبياً ، كلاسيكياً بتوازنه ، انسانياً باسس مؤلفاته ، واثقاً من نفسه ، متفائلاً ودينياً . وكان اتساع مواضيعه غير عادي : فقد عرف كيف يغترف من المصادر الاكثر تنوعاً في العالمين القديم والجديد ، ومن السماء التي فتحتها له الكتب المقدسة والايمان العميق ، ومن الارض التي وسعت حدودها جرأة الانسان .

وانتشر التأثير الروحي الاسباني في العالم، فاستقبلت فرنسا بجشع مؤلفات الروائيين المسرحيين، وترجمت قصة « دون كيشوت » الى جميع اللغات، ودرست اللغة الاسبانية في كل مكان، ورأى اللاهوتيون والفلكيون وعلماء النبات مؤلفاتهم تجتاز الحدود وتنتشر في جميع الجهات.

ان اسبانية، وقد وعت عبقريتها الخاصة التي تمتزج فيها صفاتها الاصيلة بالمؤثرات التمدينية، قدمت للعالم، في هذا العصر الذهبي، الشاهد على عظمتها الروحية واصالتها.

٢ ـ **الشعر الغنائي**: هناك اربع مدارس شعرية تتقاسم مواهب كتّاب العصر: الايطالية، والتقليدية، ومدرسة سلمنكة، ومدرسة اشبيلية.

أ ـ ان التأثير الايطالي، الذي كان عظيماً في القرن الماضي، اكتسب دافعاً جديداً حتى انه خلق مدرسة وجدت عالمها النظري في **جوان بوسكان** (١٤٩٠ ـ ١٥٥٢). وقد تأثر هذا الشاعر ذو الاصل الكاتالاني باقامته الطويلة في ايطالية، وبدأ بكتابة « الكوبلاس Coplas » والاغاني الميلادية والاناشيد، على الطريقة التقليدية، ثم اعتنق النزعة الايطالية والّف رسالة شعرية للدوقة دي سوما كانت اعلاناً للمبدأ، ونظم ما يقرب من مئة قصيدة من نوع «السونه[1] Sonnet »،

(١) سونه: قطعة شعرية من اربعة عشر بيتاً مؤلفة من رباعيتين وثلاثيتين وفقاً لقواعد ثابتة.

واحدى عشرة كانسيون Canciones ، يضاف الى ذلك القصيدة الطويلة المسماة « هيرو وليانذر » ، ثم كابيتولوس رثائية. وكان رجلا ذواقة نجح نهائياً في توجيه اهتمام الجمهور نحو ايطاليا .

ومـــا من شك في ان الشاعر الكبير في هذه المدرسة هو **غارسيلازو ديلافيغا** (١٥٠٣ ١٥٣٦) مزاحم بوسكان وصديقه . وقد قضى هذا الشاعر الرقيق افضل سنوات حياته القصيرة في ميادين معارك ايطالية « ممسكاً تارة بالقلم وطوراً بالسيف » ، وقتل في ضواحي طولون حينما كان عائداً الى وطنه ، قائداً فرقته في هجوم على متراس يسد عليهم الطريق .

وكان قد عرف افضـل المؤلفين الايطاليين واستلهمهم ، ويحتوي عمله المقتضب كحياته ، على ثلاث قصـــائد رعوية Eglogues ، وخمس كانسيونات ، ومرثيتين ، ورسالة شعرية ، وسبع وثلاثين قصيدة من نوع « السونه » . وقصيدته « اغنية الى زهرة الغنيد» هي نموذج للانشاء الاسباني المسمى ليرا Lira ، وقصائده الرعوية تشهد بتـذوق العصر للنوع الريفي الذي خفف تصنعه المفرط بواسطة الرقة والانسجام اللذين تمتـاز بهما اشعار غارسيلازو، وكذلك بنقاوة لغته التي يمزج بها رغبات وعواطف شخصية .

ان غارسيلازو اعطى اللغة الكاستيلية مرونة وعذوبة كانتا مجهولتين قبله ، ولكن كمال غنـــائيته وضعه في مصـاف الكلاسيكيين فيما بعد .

ويذكرنا غارسيلازو ، بحياته ومؤلفاته والتأثير الذي فرضه على من بعده من الشعراء ، بالشاعر الفرنسي اندره شنيه ، في كثير من النقاط .

دييجو هورتادو دي منـــدوزا (١٥٠٣ – ١٥٧٥) : لعب هذا السيد الكبير دوراً سياسياً اولياً ومثّل شارلكان في ايطاليا . وفي ايام فيليب الثاني زالت حظوته وكرس نهاية حياته لاعمال ادبية . وقصائده نوعان : فالاول مستوحى من القدماء وقد جعل منه النموذج الكامل للانساني « المتطلين » . والثاني يستخدم المقاييس الوطنية ، وهو ذو الهام مألوف ، وقح احياناً . ولهذا المنشيء الفخم في بعض الاماكن نبرات تقارب نبرات جوان رويز رئيس كهنة هيتا .

ب – احدث انتصار المدرسة الايطالية رد فعل عنيف عند التقليديين الذين خافوا على غنائيتهم ان تفقد اصالتها العرقية . وما من شك في ان اوزان **الآرت مينور و الآرت ماجور** كانت كثيرة المرونة لتجهز الشعراء بآلة موسيقية رحبة المدى . ولكن المسكين بالمدرسة القديمة اعوزهم رجل عبقري تصحح مؤلفاته النظريات .

واكثرهم مهارة هو **كريستوبال دي كاستيلليجو** (١٤٩٠ – ١٥٥٠) . فآثاره المجموعة في ثلاثة مجلدات تعد بين افضل آثار العصر وتمتزج فيها المستوحيات المتنوعة . وقد كتب هجاء حاداً « ضد اولئـــك الذين اهملوا المقاييس الكاستيلية ليتبعوا

المقاييس الايطالية » . وكانت النبال التي راشها على أتباع بتوارك حادة وخطرة .

ج – والمدرستان الشعريتان الاخيرتان هما لاحقتان ، من الوجهة التاريخية ، للمدرسة التي ذكرناها . وارفع وجه في المدرسة التي ظهرت في العقد الثالث من القرن السادس عشر ، والمؤلفة على الخصوص من شعراء كاستيليين ، هو وجه فراي **لويس دي ليون** . اما مدرسة اشبيلية فمن العصر نفسه تقريباً ، وهي تركز الشعر الغنائي الاندلسي الكثير الالوان حول **فرناندو دي هيريرا** . ولكن الصورة المنتصبة فوق الجميع هي صورة اكبرهم ، **لويس دي غونغورا** .

لويس دي ليون (١٥٢٧ – ١٥٩١) : كان راهباً اوغسطينياً يعد بين اشهر الكتاب الصوفيين . وقد علّم زمناً طويلاً في سلمنكة ، وسجن خمس سنوات بأمر من ديوان التفتيش . ولما استعاد حريته اصبح نائباً اسقفياً عاماً لرهبنته في كاستيليا ، ومات سنة ١٥٩١ .

ومن بين مؤلفاته النثرية التي لا يمكن فصلها عن شعره تلك المحاورات المعنونة باسم « أعداد كريستو » (١٥٨٥) ، والتي اتخذت صورة طرفة . وقد حاول فيها ان يشرح سر النعوت الثلاثة عشر المقدسة المستعملة للمسيح . وكل من هذه المباحث الصوفية مرفق بتحليلات اخلاقية دقيقة وتحليقات شعرية ذات شكل افلاطوني، ووصفت فيها مناظر طبيعية جميلة . اما فلسفته

فمزيج محظوظ من الزهو المسيحي والفلسفة الزينونية [1] الظاهرة بكثير من الوضوح في قصائده ايضاً .

ويظهر كعالم اخلاقي في بحثه المقتضب المسمى « برفكتا كاسكادا » (١٥٨٣) ، كتاب واجبات المرأة المتزوجة . ونثر فراي لويس من اجمل النماذج في اللغة الكاستيلية ، في ذلك العصر .

واشعاره الاصيلة ، بصرف النظر عن ترجماته للكتب المقدسة، تبلغ الثلاثين قطعة تتحد فيها انقى مستوحيات الصوفية الاسبانية باندفاعات الاغريق الالهية وكلاسيك هوراس الانيق، وتشغل مع نشيد الانشاد المكان الممتاز .

وهذه القصائد توحد في شطحات نادرة بين النقاوة المنسجمة لشكل ذي اساس كلاسيكي وبين صدق العاطفة وعمقها . والغنائية المتوازنة الفاتنة هي الميزة الخاصة لشعر فراي لويس .

د – ومدرسة اشبيلية تناقض مدرسة لويس دي ليون السلمنكية . لان ترصن هذه ، وتعففها النسبي ، وقوتها العادلة الصافية تناقض بريق تلك وفيضانها والوانها . انها تشير الى الفرق الكبير ، الطبيعي والبشري ، بين الهضبة الكاستيلية والجنوب الاندلسي .

---

(١) الزينونية : نسبة الى زينون السيتيومي المولود في سيتيوم (نهاية القرن الرابع قبل المسيح) (المترجم)

وما من احد يمثل المدرسة الاشبيلية بكثير من القوة مثل **فورناندو دي هيريرا** (١٥٣٤ – ١٥٩٧). فهذا الاكليريكي الذي لم يتلق اسرار النظام المقدس ، والذي يدعونه « الالهي » بسبب جمال اشعاره ، احرق كل حياته ذات العاطفة الطاهرة في سبيل الكونتس دي جلفس ، ليونور دي ميلان ، وكرس لها شاعريته والهامه وافكاره . وقد نشر ملاحظات حول مؤلفات غارسيلازو فعرّف بذلك شاعريته الخاصة .

وتتميز هذه الشاعرية بالبروز الذي يسبغه على عناصر اللغة الموسيقية، ليحصل من الشعر على اكبر رنة ممكنة. وخلق بهذا لغة خاصة ، غنية بعناصر الالوان والتعابير وتنوع النعوت وتفخيم الكلام في الجملة . اما ابهة كلماته ، وصوره ، وقوة انشائه الوصفية ، والايقاع الذي يكمن تناسق جذاب في التواءاته، كل هذا يسبغ على عمله جمالاً في النظم يميزه عن سواه. وبفضله اتخذت مدرسة اشبيلية صفتها النهائية واصبحت ذات تأثير غير عادي. وسوف يقلده افصح شعراء اسبانية امثال لوب دي فيغا وغونغورا وكنتانا، ولن يستطيع احد ان يجيء النجاح افضل منه لمدرسة غونغورا او ان يرفع من شأن الاتقان السديد للشعر الاسباني ذي المقاطع الاحد عشر .

٣ – **لويس دي غونغورا** : هذا هو « الشاعر العظيم L'altissimo poeta » . فهل هو مجدد ؟.. لا شك في ذلك ، ولكن مؤلفات هذا الذي دعي في عصره « هوميروس اسبانية »

و « ملاك النور » ترتبط بأنقى تقليـــد كلاسيكي . وغونغورا المنتسب الى طبقة نبلاء الثوب وارثة طبقة نبـــلاء السيف التي تشكل في اسبانية اصلب متراس للنزعة الانسانية قد غذي في طفولته، وفي بيته الوالدي ، بتذكارات ميثولوجية وباستشهادات من تيوقريط وفرجيـل واوفيد — وقد رأى النور في قرطبة سنة ١٥٦١ — ويبدو انه مخصص لانماء ذوق البهرجة والبهلوانية في انشاء تميز به اثنان من مواطنيه ، هما لوكان وسنيك .

ولما كان مقدراً له تولي منصب القضاء او الحكم وفقاً لمركز عائلته فقد اكمل تشكيله الكلاسيكي في جامعة سلمنكة، وعاش في هذه المدينة عيشة الشبان ابناء العائلات الموسرة ، متهاوناً بالقانون الكنسي ، دائم التردد على قاعات المقامرة ، منصرفاً الى جميع ملذات حياة سهلة ليست المغازلات الغرامية هي الاخيرة فيها . ولم يمنعه ذوق الابهة والحياة المرحة من الاستمرار في ولعه بالانسانيات . وقد ارتبط بين سن الثامنة عشرة والعشرين بصداقة مع بعض الشعراء الشبان السلمنكيين الانتهازيين مثله .

وعاد الى قرطبة دون ان يحصل على الشهادة الضرورية التي تتيح له بممارسة وظيفة قضائية ، فانصرف الى الكنيسة . وفي سن الرابعة والعشرين انخرط في القضايا المقدسة وحصل على دخل في كاتدرائية قرطبة . ولكن واجباته الكهنوتية التي كان يمارسها بتراخ فسحت له المجال لينصرف الى الحياة العامة ، حتى خيف عليه ان يعود الى ارضاء ولعه بالقمار ومناجاة ربة الشعر .

وكتب قليلاً : بعض الرومانس .. والمعروف منها خمسون موزعة على مدار خمس وعشرين سنة - معظمها مضحك . واغنيتان او ثلاث نظمت بمناسبة بعض الحوادث التذكارية ، وبعض قصائد مناسبات من نوع « السونه » مهداة الى اشخاص كبار او الى اصدقاء . هذا هو كل « العفش » الادبي الذي اكسبه في سن الخمسين شهرة شاعر رقيق وعالم .

وبعودته من رحلة الى فالادوليد ، حيث كان يقيم بلاط فيليب الثالث يومذاك ، فقد اصبح رئيساً لجماعة من الشعراء القرطبيين الشبان ، بينهم لويس كاريللو وبارافيسينو ، وتطور نحو فن اكثر علماً وسداداً ، واكثر شخصية في الوقت نفسه . ويبدو انه وعى تماماً مهمته كشاعر عند بلوغه سن الخمسين ، كسرفنتس في «دون كيشوت»، فترك دخله في قرطبة وذهب لمدة سنة الى الريف حيث ثابر على نظم قصيدتيه الكبيرتين اللتين ظلتا نموذجاً لما سمي في ذلك الوقت الانشاء المثقف : اسطورة بوليفام وغالاتيه والاسطورة الاولى من « السوليدادس » وهي نوع من الريفيات ينشد فيها الشاعر حياة الجبليين الغرامية .

وقد انتشرت هاتان القصيدتان ، اللتان لم تنشرا في حياة المؤلف ، في نسخ مخطوطة في كل من اسبانية وايطالية حيث كان جيان باتيستا مارينو يعطي في العصر نفسه اشارة تجديد مماثل في اللغة الشعرية بكتابه « آدون » .

وكان لغونغورا كثير من المعجبين الغيورين ، وهم على

الغالب مقلدون اكثر منهم مهرة . ولكن حملة ادبية قامت ضده في الوقت نفسه وعلى رأسها كوفيدو Quevedo وجوريغي Jauregui ولوب دي فيغا . والعجيب في الامر ان هؤلاء المشنعين الثلاثة قد تعرضوا هم انفسهم للعدوى « الغونغورية » .

واستطاع تلامذة الشاعر واصدقاؤه ان يقنعوه بالاستقرار في مدريد التي عاد فيليب الثالث فجعلها عاصمة للمملكة . وعين غونغورا كاهناً فخرياً للملك فوجد في البلاط حماة ذوي مراكز ممتازة امثال الدوق دي ليرم ورودريغو كالديرون الشهير الذي فقد حظوته بعد بضع سنوات ومات على المقصلة . وقد اوحت هذه النهاية الفاجعة للشاعر واحدة من اجمل قصائده . ولكنه لم يعد ينظم قصائد ذات نفس طويل بعد السوليداد الثانية المخصصة لوصف حياة صائدي الاسماك . ونجد بين قصائده « السونه » المأتمية اصفى طرف الدور الاخير من حياته .

وكانت تساوره دائماً فكرة الموت فجعل موضوعه المفضل المعارضة بين العدم حيث الوجود البشري الداكن وبين فخفخة المآتم والزينات الباطلة والمقابر .

وفي سنة ١٦٢٦ شعر بقرب نهايته فانسحب نهائياً الى قرطبة حيث مات في السنة التالية .

ونستطيع ان نميز عصرين متاخمين في مؤلفات غونغورا : فالعصر الاول كان فيه الشاعر مخلصاً لتقليد غارسيلازو وهيريرا

فاعتمد انشاء واضحاً وبحث عن موحياته في المواضيع الشعبية على الخصوص ، والعصر الثاني قطع فيه الشاعر علاقته بالمثال الكلاسيكي واختار تركيباً للجمل وبياناً شخصيين جعلا مؤلفاته غير مفهومة . ولكن النقد الحديث الذي اقر علم تاريخ للازمنة اكثر قساوة على مؤلفات غونغورا قد اثبت بطلان هذه النظرية.

والحقيقة ان الشاعر قد ثقف ربتين للشعر منذ شبابه حتى موته : ربة الشعر العامي وربة الشعر الفصيح العالي . واذا درسنا بانتباه قصائد الفئة الثانية على ضوء علم تاريخ الازمنة يتأكد لنا وجود تطور دائم في مؤلفاته ، سائر من قصائده الاولى «السونه» خلال السوليداد والبوليفام حتى المؤلفات المأتمية في سنواته الاخيرة . وتركيب الكلام عنده ، المتجه منذ البدء ليتقولب وفقاً لتركيب الكلام اللاتيني ، يتعقد شيئاً فشيئاً بالمكسيات inversions والمضمرات anacoluthes ؛ وتهدف مفرداته للوصول الى معنى العبارات البدائي في قلق يظهر اكثر فاكثر في «اعطاء الفاظ القبيلة معنى اكثر صفاء» . وفي الوقت نفسه فان الاستعارات التي تعتدي فيها الواحدة على الاخرى تتكاثر تكاثراً لا نهاية له وينشأ من ذلك في بعض الاحيان الغاز من الصعب ان نجد وراءها الوحي الاولي . وفضلاً عن ذلك فان التذكارات الميثولوجية والتوراتية ، والكنايات التي لا يعثر القارىء غير المطلع على مفتاحها تجعل الكثير من المقاطع في مؤلفاته غير واضحة الا على ضوء التفسيرات. ولكننا نملك اليوم

تفسيرات كثيرة لغونغورا تجعلنا نحمر خجلاً لجهلنا .

ولكن اي وضوح في العبارات وراء هذا العالم الواسع الصبياني احياناً ، حين يتعلق الامر بابراز صورة ! واي غنى بالاشكال والالوان وراء المجازات والاستعارات ! واي استحضار جذاب للاشياء المألوفة عند الاختيار البسيط للنعوت !

وبصرف النظر عن كل قضية مدرسية فان غونغورا الذي يريد جيل الشباب في ايامنا ان يرى مثيلاً له ، يبقى واحداً من اكبر الشعراء ، ويمكن ان يكون اكبر شاعر في اسبانية .

٤ ــ **تلامذة غونغورا:** انهم كثيرون ولكنهم لا يعترفون بنسبتهم اليه ويتمردون على تأثيره الذي لا يستطيعون الا ان يقعوا تحت وطأته .

والاخوان ليوناردو دي ارجنسولا هما افضل ممثلي المدرسة الاراغونية ويحتلان مركزاً ممتازاً بين شعراء عصرهما . وقد جمعت آثارهما في مجلد واحد سنة ١٦٣٤. واكبرهما « **لوبرسيو** » ذو اناقة ونعومة، اما الثاني ، **بارتولومه**، فكثير القوة والعمق، والاثنان يستوحيان الكلاسيك اللاتيني ، تاركين التجديدات المثقفة، ولغتها نقية مهذبة حتى ان لوب دي فيغا كان يقول عنها: « لقد جاءا من الاراغون ليعلمانا لغة الكاستيل » .

ومع ان الاثر الرئيسي للوب دي فيغا هو في المسرح فانه ، مع ذلك ، اهم شاعر عرفه القرن الذهبي بعد غونغورا . والصفة

الرئيسية لشعره هي الميعان : ميعان الصور والتفكير والتعبير والانسجام الموسيقي .

وقد حاول لوب ان يوحد بين الشكل الغنائي للمدرسة « المتطلينة » والتقليد القومي الصرف في الاشعار القصيرة، واعطى في ذلك نماذج طيبة ، وكان مثاله الشعري في ان يوضح « الفكر الاسباني مع الزخرف الايطالي » ، وكان عدواً دائماً للنزعة التثقيفية culteranisme مع انه كان يطبقها في غالب الاحيان، وهذب الرومانس و « السونه Sonnet » بشكل مدهش ، واجاد في اوصاف الطبيعة : فالحيوانات، والزهور ، والنباتات، وعناصر المناظر الطبيعية الاخرى كانت كلها نماذجه المفضلة . وعرف ان يمزج الشعر الشعبي وطلاوته بدقة الفكر الاكثر فصاحة . وحين سار على اثر غونغورا في الخضوع لروح العصر ، فقد عرف دائماً، بتلك المرونة الباهرة التي لا يملكها احد غيره، ان يجد الينابيع العميقة للحساسية الشعرية ، وان يشرحها بسهولة لا مثيل لها .

واخيراً **فرنسيسكو دي روجاس (١٥٨٣ – ١٦٥٩)** ، وهو شاعر اندلسي يستحق الاشارة اليه بسبب قوة الهامه وذوقه بالنعوت والمثاليات الفلسفية الاكثر سمواً . وقد ظل وقتاً طويلاً يفضل هيريرا على نفسه ، وتخصص بانشاد الزهور وترك مقاطع مؤثرة حول الوردة على الخصوص لا تزال تُدرج في جميع كتب المنتخبات الشعرية .

٥ — **الملحمة** : انها لم تمت بذهاب العصر الملحمي بل كان تطورها مدهشاً حتى خلال العصر الذهبي. ويعود الفضل في ذلك الى الرغبة في معارضة المؤلفات الايطالية المماثلة والى الكبرياء في انشاد مفاخر اسبانية على جميع مسارح العالم ، ولكن نسمة الحياة كانت تعوزها، فهناك اكداس كبيرة من القصائد الطويلة قد ظهرت ولم يستطع ان يخترق العصور منها الا القليل .

ومن بين الملاحم الدينية لم تستطع سوى واحدة فقط ان تعيش ، هي « **المونسرّات** El Monserrat من تأليف **كريستوبال دي فيرويس** الذي غنى اسطورة الناسك جوان غاران الكاتالانية القديمة قاتل ابنة الكونت دي برشلونة والذي نجا بشفاعة العذراء بعد توبة غير عادية . وهذه الاسطورة الخاصة بالقديسين لا يمكن ان تكون ملحمة حقيقية الا بما فيها من حشو، ولكن طابعها الصوفي وقوة انشائها مددا شهرتها طويلاً.

اما الملاحم التاريخية مثل « لادراغونتيا » او « اورشليم المفتوحة » للوب دي فيغا ، و « انتصار الرونسفو » لبالبونيا او غيرها ، فقد ألقيت في زوايا الاهمال بعد ظهور « الآروكانا» تأليف **ألونسو دي إرسيلا اي زينيغا** بين سنة ١٥٦٩ وسنة ١٥٩٠ . وللمرة الاولى والوحيدة يلهم اكتشاف اميركا قصيدة كبيرة. وموضوع هذا الكتاب المقسوم الى ثلاثة اقسام هو الاستيلاء على الشيلي واستعمارها والمعارك التي خاض الاسبانيون غمارها ضد الآروكانيين الى ان تغلبوا عليهم نهائياً .

وبسلوك هذه الطريق فان ارسيلا شهر الحوادث الكبرى المعاصرة كمعركة سان كنتان ومعركة ليبانت وحرب فيليب الثاني ضد البورتغال .

وتبرز احدى ميزات المؤلف في سرد كثير من الحوادث التي كان شاهد عيان لها، وكذلك وصف الاشخاص والاماكن والمناظر الطبيعية .

وهذا التمجيد للنشاط الاسباني في العالمين القديم والجديد ، بواسطة ثمانيات قوية تتخللها بعض الاحيـــان نسمات حية من المعارك ، محاولة اصيلة لخلق شكل قومي للملحمة وذلك بتحويل العنـــاصر القديمة . ومع ذلك فان النجـاح الذي احرزته هذه المحاولة لم يوصل الى نجاح النوع .

٦ – **النثر التعليمي** : هنالك اسمان يمتازان عن غيرهما في القسم الاول من القرن السادس عشر ، همـا غوفارا Guevara وفالديس Valdès .

انطونيو دي غوفارا (مـات سنة ١٥٤٥) : كان اسقفاً في قادس وعرف طوال حياته نجاحاً عظيماً كمؤلف، في اسبانية وفي الخارج ، وكتاباه الرئيسيان هما «ساعة الامراء» و «احتقار البلاط ومدح الحقول» .

وغوفارا ذو الانشاء الجميل كان استاذاً للبيان في عصره كما كان بلزاك في فرنسا في القرن التالي . وكان يملك جميع فضائل

البياني الكامل وجميع عيوبه ايضاً ، ومرد ذلك في قسم كبير الى التأثر بنزعة اللغة الانكليزية المستعملة في بلاط انكلترا على عهد اليزابيت والمسماة euphuisme . اما من ناحيته فقد كان كذلك وفقاً للمفاهيم التي تطورت بعده .

جوان دي فالديس (مات سنة ١٥٤١): هو احد الوجوه الاكثر فتنة في الالحاد الاسباني ، كتب « محاورة مركور وشارون » فجاءت تقليداً ماهراً للوسيان واعاد المجد لرقصات الموت القديمة. واشتهر على الخصوص بكتابه « محاورة في اللغة » الذي كتبه في نابولي ونشر بعد ذلك بوقت طويل ، وهو جدل لغائي حقيقي استعر بين اسبانيين وايطاليين حول جدارة اللغة الكاستيلية وشهرتها . وقال عنه ميناندز اي بيلايو انه اعظم كتاب نثري ظهر قبل سرفنتس .

واعطانا هذا العصر مؤرخاً كبيراً في شخص اليسوعي **جوان دي ماريانا** (١٥٣٥ — ١٦٢٤) ، وهو واعظ بليغ ذو ثقافة واسعة اراد ان يكتب تاريخ بلاده بقلم متحرر . وبحثه اللاتيني المسمى « دي ريج De Rege » الذي يقول بشرعية قتل الملوك المستبدين كان ذا تأثير على رافاياك[1] وقد أحرق في ساحة غريف Grève .

وكتب ماريانا « تاريخ اسبانية » باللاتينية في ثلاثين كتاباً

---

(١) فرنسوا رافاياك: قاتل هنري الرابع ملك فرنسا، ولد في تولفر بالقرب من انغوليم ومات ممزقاً ارباً (١٥٧٨ — ١٦١٠) . (المترجم)

ثم ترجم الى الاسبانية ، وظهر هذا النص من سنة ١٦٠١ حتى وفاة صاحبه . وهو يضم جميع الحوادث منذ العصر الاسطوري حتى ايام الامبراطور شارلكان ، ويرمي الى ان يكون تقريظاً للمآثر القومية، وقد تبع ، في شكله، مثل المؤرخين اللاتين ونخص منهم بالذكر تيت ليف .

٧ – **مؤرخو العالم الجديد** : انتجت الفتوحات في اميركا سلسلة طويلة شائقة من المؤرخين . واذا نحينا جانباً رسائل كولومبس الخاصة التي هي وثائق ثمينة من حيث انها تجعلنا نستشف طباعه « حب الشهرة ، والزهو ، وحب الذهب » ، ومن ناحية وضوحها الاثنوغرافي (علم خصائص الشعوب) ، فان لنا من رسائل **هرنان كورتيس** وعلاقاته الرسمية نماذج من هذا النوع . ولم يكن كورتيس قاسياً غير مثقف . فقد درس في سلمنكة واتم دراسته الادبية . وتذكرنا رسائله المصقولة باعتناء بانشاء سيزار، وقد وصف فيها الشعب المغلوب ، ومؤسساته ، وابنيته ، وعاداته بلطف ومحبة لا نجدهما عند نموذجه اللاتيني . ونالت في اسبانية والخارج نجاحاً دائماً .

غونزالا فرناندز دي اوفييدو (١٤٧٨ – ١٥٥٧) : ألف « التاريخ العام للهنود » في قسمين . وهذا الكتاب يقدم الينا كمية من المعلومات والتفاصيل الغريبة بما يجعل له جاذبية كبيرة رغم نقصان المخطط العام . واوفييدو لا يظهر اي كره للهندي بل يعتبره طبيعياً . ولكن خلو الكتاب من روح النقد يفسد

في بعض الاحيان افضل صفحاته. اما رأي المؤلف بكريستوف كولومبس فكثير التحفظ .

برتولومه دي لاس كازاس (١٤٧٠ – ١٥٥٦) : يبدو في كتابه « خراب بلاد الهنود » المدافع الكريم عن هؤلاء الذين عاملهم الفاتحون بشراسة ، وكان لكتابه تأثير كبير في الخارج حيث حكم منذ ذلك الوقت حكماً قاسياً على عمـــل اسبانية الاستعماري . وهوجم في بلاده ونال هجـاء لا نهاية له . وهو كصاحب مذهب لا يعرف التساهـــل ، لم يستطع ان يظهر الفروق الدقيقة في احكامه على اساليب الفتح . وكتابه يهدف الى اقامة البرهان على اشياء لم يكن يفترضها وهو يكتبه .

لويز دي غومارا (١٥١٠ – ١٥٦٠) : كان امين سر هرنان كورتيس وكتب بدوره تاريخاً لموطن الهنود. وهو ذو ثقافة ادبية واسعة جعلته يطمع في ان يكتب مؤلفاً اصيلاً . ولكن تعلقه بكورتيس جعله يخضع لسيده ويترك مفاخر جمهور الفاتحين طي الظلام .

برنال دياز دلكاستيللو : هو نموذج كامل للرائد ، كتب « التـــاريخ الحقيقي لفتح اسبانية الجديدة » ليرد عـلى كتاب غومـــارا ويعطي كل واحد من المساهمين نصيبه من المجـد . وانشاؤه قاس يلائم كل جندي ، ونثره خشن عنيف يدل جيداً على انه رجل حرب لا رجل ادب . ولكن قصته صادقة لا تعوزها الكياسة وتزخر بتفاصيل تصويرية .

ولكن ليس هنـــاك من مؤرخ بعد الاب ماريانا له قيمة **انطونيو دي سوليس اي ريفا دينيرا (١٦١٠ — ١٦٨٦)** ، الذي كتب « تاريخ فتح المكسيك » سنة ١٦٨٤ . فقد قدم سوليس البرهان في هذا التصوير الشامل على وضوح لا يشوبه اهمـال ، ودقة خالية من العلة ، تلائم المؤرخ الحقيقي . وعرف ببساطته ان ينفخ نسمة القيمة والجدارة في كتاباته التـاريخية . وانشاؤه قوي ، واضح ، مجرد .

وكان يعرف ان ينظر نظرة واسعة الى الاشياء فلا يعرض حوادث الفتح فقط بل يميل ايضـاً الى درس اخلاق السكان الاصليين ووصف دينهم وسياستهم وفنهم وصناعتهم .

٨ — **الصوفيون** : ان الكتّاب الدينيين الذين يطلق عليهم هذا اللقب يمثلون وحدهم تقريبـاً الفلسفة الاسبانية ابتداء من العصر الذهبي . فرامون لول العالم المشهور في القرون الوسطى احيا مذهب ما فوق الطبيعة وعبر عنه في نبرات حواره الجميلة « بين الصديق والمحبوب » . وقد تفتّح هـذا المذهب في القرن السادس عشر وانتج ازهاره الادبية الاكثر تألقاً .

والتقاء تأثيرات عهد النهضة الدينية والتـأثيرات الكاستيلية في القرون الوسطى ، ومجرى ساميّ هو الافلاطونية الجديدة التي يدين بها اليهودي الاسباني البليغ ليون العبري ، والهيـاج الديني الذي كان يعيش فيه معاصرو القديسة تيريز ، ومفهوم الحب وروح الفروسية ، كل هذا انتج في اسبانية نموذجاً خاصاً

للفارس الكاثوليكي ذي النفس المعجونة من جوهر المؤلفات الصوفية .

وما من شك في ان هذه التأثيرات كانت حية يومذاك في كل اوروبا ، ولكن بدرجة مخففة . اما في اسبانية حيث تتجابه روح الاصلاح والروح المضادة له فان حماسة الكتّاب الدينية قد تأكدت بشكل غريب . فصوفيتهم التي لا يمكن مزجها بغيرها تتميز بتمجيد الشخصية الانسانية وحرية الارادة . ومن هنا جاءت ضرورة المؤلفات العاملة على انقاذ النفس. والصوفيون عمليون اكثر منهم نظريين (انظر القديسة تيريز) ، يقومون بعمل الاحسان لمجرد الاحسان ، وولدوا اخلاقيين فكتبوا ليفهمهم الشعب، وليعلّموا، وليقودوا، وبهذا الشكل استعملوا لغة الكاستيل القوية باكثر ما يمكن من الوضوح في القرن السادس عشر ، وحيث ولد من ذلك كنز ادبي لا يقدر بثمن وذهب تأثيره بعيداً حتى وصل الى اكثر كتّابنا الحاليين .

فراي لويس دي غرينادا (١٥٠٤ - ١٥٨٨) : خطيب ديني نابغ كان معرّفاً للدوق داالب . وهذا الدومينيكي يملك ثقافة كلاسيكية متينة ويستشهد بارسطو وسنيك وشيشرون والقديس توما . ويشمّ من كتاباته تأثر دائم بافلاطون والقديس اوغسطين .

وله كتب مواعظ « لاغيادي بيكادورس ، الليبرو ديلا اوراسيون اي مديتاسيون » وكتاب « يوميات حول الحياة

المسيحية » . وان لم يكن ذا اصـــالة كبيرة في الاساس فانه يملك على الاقل عاطفة كونية عميقة ، ويستشهد بالمناظر الطبيعية السامية على عظمة الله اذ وصفها بملاحظة دقيقة ، وعبر عن عاطفة اللون والجو الحية بانشاء متألق منسجم يظهره كخطيب .

اما ممثلة المدرسة الصوفية الاكثر نبلاً واصالة فهي تيريزا دي سيبيدا اي احومـــادا ، القديسة تيريز ، التي ولدت من عـائلة كاستيلية قديمة في افيلا سنة ١٥١٥ . وقد كرست هذه الراهبة الكرملية نفسها لاصلاح رهبنتها وقدمت البرهـــان على طبيعة عملية قوية ، دينية صلبة . ولمـــا كانت قد قرأت في طفولتها كثيراً من روايات الفروسية فقد رغبت يومذاك ان تصـل الى الارض المقدسة وتقاسي فيهـا آلام الشهداء . وحين بدأت تعلم في الرهبنة الكرملية كرست حياتهـا لتأسيس وتنظيم الاديرة الجديدة. وكانت منظمة مدهشة وسياسية حاذقة، ومتمردة غير مبالية في بعض الاحيان، وقد قذفت نفسها في مجازفات سببت لها احزاناً ثقيلة ولكن طبعها المرح الارادي جعلها تتغلب عليها.

وقد سردت قصة كفاحها في « كتاب حياتها » (١٥٧١) ببساطة ملأى بالاناقة والصفاء والكياسة . ولم يفسد ذوقها العملي والانعكاسات الحكيمة لنصائحها الاخلاقية تلك الفتنة المنبعثة من صفحاته . اما حمية الحياة الداخلية فتتفجر من كتابها « كاستيلو انتريور » او « لاس موراداس » . وهو رمزي يصف ما جنته النفس خلال القصور السبعة التي سكنتها بالتتابع الى ان غاصت

في الوجود الالهي الذي كان للقديسة تيريز معه مفاوضات واندفاعات عاشقة حقيقية . وغنى الصور جعل لهذا الكتاب العاطفي ، العميق التفكير ، قيمة شعرية عظيمة . وكتاب « الكامينو دي برفكسيون» (١٥٦٥) خصصته لتقديم نصائح ناجعة لراهباتها في سبيل بلوغ الكمال النفسي في الحياة الرهبانية: نصائح في الفقر ، وحب القريب ، ومدح التواضع ، والتقشف ، والصلاة. ولم تهتم القديسة تيريز بالادب في صفحاتها لانه لم يكن لهـا سوى هدف واحد : البناء والتعليم . وكانت عالمة ، تعلم مذهب الحب وتكتب، على حد قول زميلاتها، باندفاع وصدق مطلق .

وانشاؤهـا انعكاس لروحها وقلبهـا ، اذ حذف منه التأنق البياني . ولغتها مألوفة دون شك ولكنها قوية جداً، تارة تبدو صارمة وطوراً لطيفة حية ، ولكنها دائماً واضحة لذيذة المذاق. وقال لويس دي ليون عن فنها : « انني اشك بوجود كاتب في لغتنا يمكن ان يعادلها في شكل الالقاء، ونقاء الانشاء وسهولته، وفي الكياسة وتجميع الكلمات المتقن، وفي الاناقة دون تكلف، تلك الاناقة الفاتنة حتى منتهى حدود الفتنة » .

ويحتفظ للقديسة تيريز بعدد من الرسائل تظهر فيهـا صفاتهـا الكتابية ، وكذلك بعض القصائد الصوفية (دون ان نتكلم عن القصيدة الشهيرة « قصيدة للمسيح على الصليب » التي نسبت اليها زمناً طويلاً ، ولكن مؤلفها ظل مجهولاً) التي تبدو الجملة

فيها سريعة ، واللحن مقتضباً ، واناشيد الميلاد عديدة .

جوان دي يبس Yepes المسمى كهنوتياً جوان ديلا كروز (١٥٤٢ - ١٥٩١) : كان راهباً كرملياً كقديسة افيلا ، وكان صديقاً لها وتلميذاً . ومؤلفاته الروحية تغني حب الله بنبرات لم يسمع مثلها حتى هذا العصر .

والرئيسية منها هي « سوبيدا جبل الكرمل ، لانوش او سكير دل ألما ، لا لاما دي آمور فيفا » ، وقد ظهرت بعد «الكانتيكو» الروحية (١٦٢٧) .

ولجميع قصائده شروح نثرية لانها غامضة بسبب صعوبة الموضوع، وتؤلف جهازاً كاملاً من اللاهوت الصوفي المستقل تمام الاستقلال عن المذاهب الخارجية المماثلة . وهذا الجهاز يحتقر الثروة الارضية ويعظ في تطهير النفس ، والاتحاد الكلي بالله ، ولكنه لا يسقط ابداً على الاوهام ، ولا يحتقر العقل البشري .

وهي تشهد بانه ارفع شاعر صوفي في اسبانية بمؤلفاته التي وصفت انها « ملائكية ، سماوية ، الهية » ، حيث تظهر فيها عاطفة خاصة لطبيعة مشربة بحضور الحبيب الذي يلقي نظرة على الجبال والسهول « فيكسوها جمالاً » .

وقصيدة « الصعود الى جبل الكرمل » تتألف من ثمانية اناشيد يصحبها ثلاثة كتب في التفسير . اما قصيدة « الترتيل

الروحي » فتتضمن اربعين قطعة مشروحة ايضا .

وفي التعبير عن الحب الالهي الذي تثيره هذه القصائد فان القديس جان ديلاكروا وضع الجنو اللطيف والسحر الحسي اللذين ينبضان في افضل القصائد الغزلية المعروفة ، ويضيف اليهما تلك العاطفة الاصيلة للطبيعة التي زينتها عاطفة الشاعر الروحية بتألق لا مثيل له ، مما جعله يبلغ تأثراً شاعرياً وغيبياً حقيقياً لا يمتزج بشيء غيره . وكل شيء فيها ينم عن شفافية انجذابية لدقة وفتنة لم تستطع القديسة تيريز نفسها ان تبلغهما .

٩ – الرواية :

أ – رأت رواية الفروسية ذروتها تمتد خلال القرن السادس عشر بكامله ، وظهر لأماديس مزاحمون كثيرون اشهرهم : بلميران دي انجلترا ، فلوريزاندو ، ليزورات دي غريسيا ، اماديس دي غريستا ، فلوريزال دي نيكوا . وظهر في الدور البريتوني لهذا النوع مؤلفات مثل «تريستان دي ليونيس، طلب القديس غرال ، ارتوس الغربي » ، فاذا بابطال وفرسان جدد يناضلون بدورهم ضد الناس والسحرة ، وذعر الاخلاقيون من نجاحهم فاعلنوا الحرب المقدسة ضد هذه المنشورات المذيانية التي تبلبل مخيلة القراء، وخافوا ان تصل هذه المؤلفات الى العالم الجديد فتسبب اسوأ ارتداد في اخلاقية السكان الاصليين وعواطفهم .

وفي منتصف القرن السادس عشر بدأ نجاح هذا النوع

يضعف ، فنضبت حمية الروائيين المحتدمة ، او سفلت الى درجة امتزاجها بتعابير هذيانية دينية وتمثيلها ابطالاً الهيين . ولم يتأخر الانحطاط مطلقاً حتى انه اصبح كاملاً في بدء القرن التـالي حين اجهز عليه سرفنتس بالضربات الاخيرة .

ب – **الرواية الريفية :** وبعد الفرسان المصفحين بالحديد جـاءنا رعاة الصالونات من ايطالية بعصيهم المزخرفة واشرطتهم وإبريهم فبعثوا ذلك النوع من القصائد المختصة بعيش الرعـــاة bucolique حيث ازدهر بشكل يفضل ازدهاره في القرون الوسطى الاسبانية . وكان لقصائد جوان دل انسينا وجيـــل فيسانت ، « فلانسيكو الميلاد » طعم حقولي لا يمكن انكاره. امـــا الرواج الايطـــالي « للأركاديا » من تأليف سنازار ، و « السوداد » البورتغالية العذبة الكئيبة ، فقد هيأ حفلة النصر لهذه الرواية الجديدة ، ولكن الانتصـــار بلغ اشده في قصة « انديانا » لمونتي مايور .

جورج دي مونتي مايور : ولد في البورتغـال ، وعاش على الخصوص في فالنسيا بالقرب من ليون Leon ، ومات في البيامونت . وكتب بريشة سهلة وحبر محلى بالسكر غراميات راعية نضرة بالراعي ميرينو . غراميات عورضت بالف شكل ، ولكنها انتهت كما يجب ان تنتهي ، بالزواج . وقد نالت كتب « ديانا » السبعة من النجاح ما نالته كتب اماديس ، وظهر كثير من الكتب محاكاة لها .

وكانت قيمتها الادبية كبيرة بما حملته الى الادب من مواضيع عصرية ومفهوم جديد للغيرة وخيبة الامل الغرامية ، في بسيكولوجية دقيقة لوحظت باعتناء . اما الروح وقد تعبت من مرثيات الحرب ، فقد توجهت بسرور نحو حقل اكثر صنعة دون شك ولكنه ذو تراخ لطيف متناسق .

وفي فرنسا فان رواية «الاسترة[1] L'astree» كانت احد اصداء « ديانا » الاخيرة . وقد اعطت الاثنتان الحب البشوش شكلاً جديداً وساعدتا على صقل الاخلاق .

ورواية « ديانا اينامورادا » تأليف جيل بولو التي ظهرت سنة ١٥٦٤ لم تكن دون قيمة ؛ فانشاؤها ، مع القصائد التي تتضمنها ، مليء بالكياسة . وسنرى ان سرفنتس نفسه كتب « غالاتيا » ؛ ولوب ألف « اركاديا » ؛ وغالغز دي مونتالفو نشر سنة ١٥٨٢ «الباستور دي فيليدا» التي ارتفعت الى الاوج . ولكن هذا النموذج قد ذهب ؛ ومرونة الانشاء المحببة لم تنقذ اصطلاح عقدة الرواية والعواطف المفرطة في الدقة ، ولم يعد الرعاة يرضون القراء ، ومضى زمن الريفيات .

ج – الرواية الموريسكية (العربية) : قدمت اسبانية ، كآخر تحية للاسلام المغلوب ، رواية عربية تصور فيها العدو

---

(١) استرة : الهة العدل ، ابنة جوبيتر وتيميس . وهي اسم رواية ريفية من تأليف اونوره دورفه فيها وصف حقيقي للطبيعة الى جانب تحليل نفسي عادل ودقيق . وكان تأثيرها ابدياً في الادب الفرنسي . (المترجم)

التقليدي بكرم واناقة عز نظيرهما . وتاريخ الزغري Zégries وبني سراج المعروف باسم « حروب غرناطة الاهلية » رفع اسم جنيز بيريز دي هيتا ١٥٤٤ – ١٦١٩ الى اوج الشهرة. وهو من مرسية، وكتابه سيتبوأ مركزه اليوم بين المؤلفات التاريخية التي كان يبشر بها . ويمتزج فيه التلفيق والحوادث الحقيقية امتزاجاً وثيقاً ، حيث يسرد في القسم الاول منه حكاية سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ ويبرز في وجه الملوك الكاثوليك صورة ابطال غرناطة و « الراي تشيكو » ، الملك الصغير [1] ، الذي يستحق الرثاء. ويعرض في القسم الثاني تمرد غرناطة والالبوجراس [2] الذي حصل بين ١٥٦٩ و ١٥٧١ .

ان المآسي المؤثرة الرائعة التي يتضمنها الكتاب ومغامرات الحب التي تزينه تؤلف لوحة حية هي طرفة بالالوان المحلية والقصة الشعرية . وقد عرف المؤلف كيف يجعل نصيباً لصفات الخصوم في تلك المبارزة المحمومة التي تتألق فيها الشجاعة من الناحيتين ، وكذلك فان الحب الذي هو اشد عنفاً من الجنس والدين شاهد على حالة فروسية روحية لم يتخطَّها احد الا في النادر .

وتألق القصة ارتفع ايضاً « برومانس الحدود » العظيمة التي

---

(١) المقصود به ابو عبدالله الصغير آخر ملوك العرب في غرناطة .

(٢) الالبوجراس Alpujarras : اودية عالية جنوبي السيرا ايفادا في اسبانية وهي مشهورة بثورة العرب الذين التجأوا اليها بعد سقوط غرناطة .

(المترجم)

ادمجها هيتا في نسيجه . ولم تكن هذه « الجواهر العديمة النظير في الشعر الكاستيلي » الا نتاج مجتمع بطولي ، وليس بربرياً ، مستوحى من الروح القومية الاكثر حياة، ويعكس في الوقت نفسه الاخلاق ، والملابس ، وآثار الاندلس العربية ، وتظهر فيه نفسية الشعب المغلوب في اعظم خطوطها المميزة .

امـــا الكاف بالرواية العربيـة فقد بدأ سنة ١٥٦٥ بنشر الاقصوصة الجميلة « ابن سراج ابنداريز وظريفة الجميلة » . وقد ظهرت هـــذه الجوهرة ذات الكتابة المقتضبـة السريعة في « الانفانتاريو » تأليف **انطونيو دي فيلليجاس** الذي هدف الى احياء خبر قديم ، وكانت تحتوي على بذور جميع عناصر النوع التي ستتفتح عند بيريز دي هيتا .

د – **الرواية اللصوصية** : لم يكن النوعان : الريفي والفروسي، رغم نجاحهما، سوى غراس حُملت حملًا الى الاراضي الكاستيلية. وها هو الآن نوع نموذجي اصيل يظهر مع الروايات اللصوصية وينبجس تلقائيـاً من التربة الملقحة بالتفسخ القومي . وما من شك في ان هناك لصاً في جميع العصور ترجمت صورته على الغالب تحت جميع السموات ، ولكن لم يستطع اي واحد منها ان يبعث ادباً زاخراً واضحاً يختلف عن غيره من الآداب؛ فاذا بالتقليد الادبي يتقرر فيه بوضوح ، واذا به يأتي مع هيتـا رئيس الكهنة ، ومع « سلستين » و « كورباخو » ، وينبجس من المجرى الشعبي القاسي الكثير البذور الذي تظهر نبراته القوية

في الملحمة والرومانس وامثال القرون الوسطى ؛ وكان رد فعل عنيف ضد تفاهة الرعيانيات والغراميات الفروسية المفرطة بالدقة واعنف هجاء يمكن قذفه في وجه العواطف السامية التي تمجد شجعان ذلك الزمان . إنا نجد هنا نبلاً معكوساً ، فخوراً باصله المنحط ، واعياً شخصيته ، فخوراً ايضاً بمجازفاته البائسة اكثر من فخره باعمال السلاح الاعظم قيمة . والجوهر الديموقراطي للغة والروح الكاستيلية يعطي النوع اللصوصي فلسفة وشكلاً لا يشبههما شيء . اننا امام ثمرة برية من سهول اسبانية الخشنة تتكشف فيها صلابة غير حقيرة ، انها صلاة طبقة متوسطة في جنس من الناس .

وللص او الوغد اتجاه ملحمي ايضاً ولكنه يستعمله في سرد كفاحه اليومي ضد الجوع والالم الجسماني . وليس هناك من شيء جدي سوى ما يمس القوانين التي تدير الجسم الانساني . عليه ان يتغذى ، ويرتدي ملابس ، ويتذوق ملذات الحب ، وينام بنجى من « السيبرزو » العنيف . هذه هي المشكلة التي تعرض للصعلوك في كل صباح ويجب عليه ان يحلها . يقول المثل القديم « غداً سيكون يوماً جديداً » . ليس لنا ان نهتم بذلك ، لا بالموت ولا بحياة المستقبل . انه طعم من النزعة العدمية « النهيليستية » يتصاعد الى الشفاه عند قراءة بعض صفحات الروايات اللصوصية .

وليس هناك ما يدهش ايضاً في رؤية اللص عندما يتخذ امام

الموت موقفاً طليقاً . ان الصوفي لا يخاف الموت ، ولا الجندي ايضـــاً . فللاول مجد الجنة وللثاني مجد الارض . وهما طعمان كافيان لمجابهة الساعة الاخيرة . اما اللص فلا يرى فيهـا ، دون ان يخاف شيئاً او يتمنى شيئاً ، سوى نهاية معركـة لا تنتهي كانت فيها الساعات الجميلة نادرة والسيئة كثيرة . انه لا يحمل قلبه في منديل : فالحب المثالي لا يزعجه ابداً ، والجوع يلازمه دائماً. انه عقاب نهم ما ينفك يعلن عن حقه . واثناء هذا البحث الوضيع المنحط فان الصعلوك سيحمل المرح على الغـالب ، مرح ناتج عن احتقار متين لكل ما هو غيبي. ولكن ضحكته سترن خلال العصور بنبرة خاصة لا تدل على الغالب الا على اوهـام اليأس المفرطة .

أ – **لازويللو دي تورمس** : انها اولى الروايات اللصوصية تاريخياً ، وافضلها بلا شك . واول طبعة معروفة لهـا تعود الى سنة ١٥٥٤ . وهي غفل نسبت في بعض الاحيان الى **دييجو دي مندوزا** ، وفيهـــا جميـع الخطوط المميزة للنوع : النبرة الاوتوبيوغرافية (سيرة الكاتب يكتبها بقلمه)، وسرد الحوادث الاخباري ، والدعـــاية المجردة لمؤلف يرسم بدم باردٍ كثير الواقعية الوقحة اكبر المشاهد المشينة واعظمها تأثيراً . فلازار ، بطلها ، يحل خيط حيـــاته بممارسة جميع المهن دون ان يتعلق بواحدة منها : قائد لأعمى ، وخادم كاهن بخيل، وخادم فارس جائع ، ثم خدم شخصيات كبيرة ولصوصـــاً ، وبهذا نفذ الى

جميع الطبقات الاجتماعية التي اصدر حكمه عليها باحتقار باسم وانتهى منادياً في شوارع طليطلة .

ونزعة المشاهد الواقعية القوية ، ووضوح الخطوط الحاد ، وسداد الهجاء القاسي ، وقناعة الانشاء الرشيقة ، كل هذا يجعل من القصة طرفة صغيرة سحرت الاسبانيين في جميع الازمنة ، وبعد ان استعملت كنموذج لنوع جديد لم يستطع احد من مقلديها ان يتخطاها .

ب – ويضع البعض في الصف الاول رواية « غوزمان دي الفاراش » تأليف **ماتيو آليمان** (١٥٤٧ – بعد سنة ١٦١٣) الذي استخدم وقتاً طويلاً في ديوان المحاسبة في مدريد بعد دراسة أفاقة . وفي سن السبعين هاجر مع اولاده الى المكسيك ومات فيها .

وروايته « غوزمان » هي سيرة مغامر اشبيلي طاف العالم وتقلب في جميع الحالات : مساعد طباخ ، حمال ، جندي في ايطالية ، صعلوك في فلورنسا ، خادم كردينال في روما ، مدير منزل سفير فرنسا ، ماجن وسمسار . وطاف بين الشعوب اللاتينية فتزوج في الكالا ، وترك زوجته في اشبيلية ، وسجن اخيراً بالاشغال الشاقة . وقد مال به هذا التقهقر الجبري الى التأمل والتذكار ، واتجه في كتابة مذكراته الى ان يعظ اولئك الذين يميلون الى العيش في الرذيلة .

ويضم هذا المؤلف ثلاثة عناصر متميزة : القصة السارة لمغامراته

الكثيرة، والاخلاقيات التي يضيفها اليها كضد للسم، والحكايات التي ادرجها في الرواية. ولكل من هذه العناصر فتنة : فالسرد زاخر وسهل ، والمفردات غنية ، والادوار الشعبية لطيفة حية ، والاخلاقيات ذات لذة لا نهاية لها. ونستطيع القول انه لم يوعظ بالفضيلة قط بأعظم من هذا التنوع والمخيلة والخصب. ان مونتاني Montaigne ملقّح بسانشو [1] ، والقرابة ليست مهملة .

واخيراً ، فان القصة موشاة بحكايات منفصلة تتألق بينها الحادثة الموريسكية (العربية) البديعة « عثمان وداراجا » القريبان كثيراً من « ابنداريز وظريفة الجميلة » .

ويحتفظ كل ذلك بالنبرة الشعبية في كل عنفوانها الناضر ، وتلك اللغة المتوحشة التي يستعملها آليان تحمل باهمال وتصنع خفيف غنى بديهياً باهراً في مجراها القوي .

ج – رسم الطبيب الطليطلي لوبز دي اوبيدا في كتابه « بيكارا جوستينا » صورة حاذقة لخالعة العذار نجد فيها جميع التأثيرات الممزوجة بالمؤلفات اللصوصية السابقة . فالدعابة كثيرة الابتذال محللة الى حوادث ذات فائدة غير متساوية . ولكنها كنز حقيقي من الادب اللصوصي، واللوحات الشعبية التي رسمها المؤلف تشكل ثمناً لهذا المؤلف اللذيذ غير المتساوي .

---

(١) مونتاني كاتب افرنسي شهير وسانشو البطل الشمالي في قصة « دون كيشوت » . (المترجم)

د – فيسانت اسبينل (١٥٥٠ – ١٦٢٤) : كتب اكثر المؤلفات جاذبية. وفارسه ماركوس دي اوبرجون طاف البلاد التي جال فيها الكاتب : اسبانية، ايطالية، الفلاندر، البورتغال. ثم اصبح فارساً هرماً للسيدات فقص على ناسك حكيم مغامرات شبابه المجنونة . والقصة مقسمة الى ثلاثة اقسام وهذه مقسمة الى فصول تدعى « دسكانو » او وقفات . والنبرة فيهـــا موقعة ومحتشمة ، والنزعة الاخلاقية ممتازة ، وهناك ايجـاز في الفصل الاخير الذي يتضمن مديحاً للصبر . وهذه « الكونفورميداد » هي اسبانية بشكل غريب .

الفصل الرابع

الذروة

١ — سرفنتس : ميكال دي سرفنتس سافيدرا، ولد في ألكالا دي هيناريس ، بالقرب من مدريد ، في تشرين الاول ١٥٤٧. وحياته سلسلة من الاخفاقات المتوجة بأروع الانتصــارات ، وهي تمثل زمنه وبلاده ، وتمتزج بحيــاة بطله بحيث يستصعب عدم رؤية تلك الوحدة الجسمانية والاخلاقية بين الكاتب الكبير وخليقته الخالدة .

والاثنان كاستيليـان ، يثبتـان بجسمانيتهما تفوق العنصر السلتي[1] : شعر فـــاتح ، وصبغة حية متأثرة بالهواء الطلق . والمثالية الساذجة نفسها تُقرأ في نظراته كشاعر او كولدٍ مصرّ

(١) السلت : شعب من العرق الهندي الجرماني تعود هجراته الكبيرة الى زمن ما قبل التاريخ، اما نموذجه ولغته فلا يزالان بارزين في بريتانيا وبلاد الغال وارلندة . (المترجم)

على الخطأ ، ولما كان ظهر سرفنتس محدودباً وقامته العادية مسكناً للمفكر الحكيم ، فان قليلاً من الكاريكاتور قد شوّه الفارس التائه ، وأثار الابتسام .

وبالفعل ، فان أولونسو كيجانو استطاع ان يحيا حياة سرفنتس نفسها ، باقراره هو نفسه : « انه يدعى ميكال دي سرفنتس سافيدرا، وقد ظل جندياً سنوات طويلة، وقضى خمس سنوات في الاسر حيث تعلم ان يتدرع بالصبر عند المصائب . وفي معركة ليبانت البحرية فقد يده اليسرى بطلقة بندقية . ولكن هذا الجرح الذي يجده الجميع قبيحاً بدا له جميلاً لانه أصيب به وهو يحارب تحت اعلام شارلكان المنتصرة » .

اننا نجد هنا كثيراً من امائر دون كيشوت . فهذا الرجل النبيل الذي كبر سنه على الانخراط في الجيش وهو لا يزال يحلم بامجاد السلاح ، ذهب يكتسب هذه الامجاد بالاندفاع نفسه الذي دفع ميكال الصغير الى جيوش ايطالية، وبسوء الحظ نفسه ايضاً: وبينما نجد هذا جريحاً، اسيراً، مشوه حرب دون معاش، منسياً من السادة الذين خدمهم، شاحباً ، مدحوراً ، رغم شجاعته، في كل معركة خاضها ، وحتى حين تكون الاعلام التي حارب تحتها منتصرة ، فان الآخر عرف النحوس نفسها . فانتصاراته وهمية، ونتيجتها السلبية تبدو في حقيقتها القاسية المؤلمة . ولكن هذا وذاك لا يمكن اصلاحها لانهما يعودان الى ركوب اوهامهما وينخسانها بالمهماز نحو مملكة مخيلتهما المثالية حيث يسيطر العدل

والطيبة .

كان سرفنتس قد تجاوز الخمسين حين كتب روايته التي ظهرت سنة ١٦٠٥ . ولما لم يجرؤ في هذا السن ان ينصرف الى احلامه السامية فقد نسب الى فارسه كل الاحلام والنشاطات والاندفاعات نحو مصير كبير تخيله لنفسه .

ولكن هذا النشاط كان مميزاً لرجال عصره . فقد خرج الناس من غليان النهضة ، وبدا كل شيء جديداً في الآداب والفنون . واسبانية ، وقد تحققت وحدتها الوطنية مرة اخرى ، اصبحت الامة الاولى في العالم . وكان سرفنتس في الثامنة من عمره حين تخلى شارلكان عن امبراطوريته ، فعاصر حكم فيليب الثاني ونصف حكم فيليب الثالث . وقد ازدهر قبله بقليل عصر الصوفيين الكبار ، وفي ايامه انتجت اسبانية المصور العبقري غريكو gréco ولوب دي فيغــا وحيد عصره . انه عصر سحري ، زاخر بالثروات من جميع الانواع . وفي هذا الزمن، زمن الفتوحات والامجاد ، فان سرفنتس الذي يمثله افضل من اي شخص آخر قد اخفق في حياته من مبتداها الى منتهاها . ولذلك لا نرى ما يدهش اذا رأيناه يرضي نفسه بكتابة تاريخ رجل مخفق ، تاريخ دون كيشوت .

وقد زعموا انه اراد السخرية من كتب الفروسية باستعمال صورة مشوهة مبالغ فيها بذكر العيوب . وهذا ليس بأكيد ، اذ يجب ان يكون له مطمع اوسع افقاً ، هو كتابة رواية

كبرى تذوب فيها افضل مواد كتب الفروسية وتلك الحقيقة الانسانية — المؤلفة من عدم الشاعرية والسمو ومن الحياة اليومية الكئيبة — التي عرضها تتابع الايام امام عينيه الذكيتين . وبعد ، الم يكن هذا الاتحاد العجيب بين المثالية والواقعية هو نفسه جوهر العبقرية الكاستيلية ؟..

والكتاب بحث حقيقي في المعارك الفريدة والحوادث الغريبة التي تحمل دائماً معنى مؤثراً . ان دون كيشوت ، بعد ان خاطر كثيراً وكافح وتألم ، رأى نفسه مضطراً للعودة الى مسقط رأسه ليموت هناك. انها اذن رواية الاخفاق والاندحار، ولكنه رضي هذا الاندحار — ورضيه سرفنتس قبله — بتلك الطمأنينة التي عرف ان يستخرج منها اجمل الدروس الاخلاقية واكثرها حكمة .

لقد ارانا بعمله هذا الافكار ، والتيهان ، والعواطف التي تحرك النفس الرحيمة ، وكثيراً من المساكين في تعقيدهم الانساني . اننا لا نجد هنا ملاكاً للخير وملاكاً للشر ينتصب احدهما بوجه الآخر ، بل نجد الاوهام النبيلة لرجل يغذي احلاماً باطلة ، ونجد اتساع محيط افكاره محاطاً بروح مبتذلة ، معجوناً بالسذاجة والخبث الفلاحي ، واتساع الافكار هذا يوصل السيد الضائع في الغيوم الى الارض ، ولكنه يوصله متأخراً دائماً .

وهكذا فان الاعجوبة تتحقق في مجرى القصة بطريقة

لاشعورية. ان جنون الفروسية المشتعل في صدر دون كيشوت يلهب عقل سانشو البسيط ، فـــاذا به يشعر ان فضيلة سيده المتهوسة قد اجتاحته . ان في ذلك «دنكشة» مدهشة لسانشو، وبرهاناً على ان روح الفلاح الخشنة ستستيقظ ذات يوم على المثل الاعلى .

ان الروح الملتهبة لهذا الرجل المغلوب الذي هو سرفنتس ، ولكنها روح مغلوب لم يقبل قط باندحـاره ، تمر خلال هذا الفارس التائه الشفاف مقوم العيوب، وتخلق الرجل الوسط الذي يمثله الفارس . هذا هو احد الدروس النموذجية لهذا الكتاب الذي يعرض الحوادث ساخراً من اندحار رجل مثـالي والذي يستخرج منه ، مع ذلك ، اصوب الفلسفات واكثرها رجولة .

و « **الانجنيوزو هيدالغو دون كيشوت ديلا منشا** » ظهر في قسمين بينهما فسحة عشر سنوات، ١٦٠٥ و١٦١٥، وكتاب افيللانيدا الزائف هو الذي دفع سرفنتس الى ان ينهي مغامرات بطله .

وحين نشر كتاب « دون كيشوت » فرض نفسه عـلى العالم اجمع ، وانتهى به ذلك الدور الشهير لكتب الفروسية التي كان سرفنتس يعرفهـــا جيداً ويشعر ايضاً بما فيهـا من فاتن ومضحك .

وهذه الرواية الاسبانية العـالمية معـاً تملك غنى وتعقيداً لا نظير لهما. وحقيقتها الوطنية الآتية من المصدر اللصوصي الاكثر

صدقاً تشكل اطاراً لسلسلة من التفاعل البشري تسمح للقارىء ان يحلل ، اثناء سيره ، المشاكل الروحية الاكثر تنوعاً ، وان يضع لها حلاً : مشكلة الرجل المفكر الحر والمتهكم الصالح الذي تلقت حكمته دروساً كثيرة من النهضة، والذي عرضته المقادير لتجربة مرة في حياة ملأى بالاحلام ، ثم زوال تلك الاحلام.

وما من شك في ان سرفنتس هو روائي قبل كل شيء . والنتاجه الآخر اما مشترك في الرواية واما انه لم ينجح. وهو ، ككاتب محترف ، كان يحاول قبـــل كل شيء ان يستولي على انتباه القراء من معاصريه ، وتظهر اصالة عبقريته حتى انه في مؤلفاته الخالية في الظاهر من كل اهمية روحية او فنية قد توصل الى رسم نماذج بشرية كبيرة ، ومعالجة مواضيع الحيـاة والفن الاساسية بطلاوة لا يمكن تقليدها ، وامتلاك للغة لا يجاريه فيه الا القليل من ناثري اللغة الكاستيلية .

وابتدأ برواية « غالاتيـــا » المستوحاة من رواج روايات « ديانا » . وليست هذه « الرعيانية » افضل ولا اسوأ من غيرها من الريفيات حتى ولو كانت الغراميات التي يتحدث عنها فيها هي غرامياته الخاصة ، فليس هنـاك من فائدة كبيرة ، ولا تقدم الحوادث الروائية اي جديد في تعقيدها الرتيب ، اما الانشاء فذو طـــلاوة زاخرة تنبىء عن موهبة الكاتب ، وكذلك الرومانس التي ادرجها فيها فانها ذات نبرة ماتعة .

ومع ذلك فان سرفنتس لم يولد شاعراً . « فالرحـــلة الى

البرناس » التي كتبها بشكل ثلاثيات ليست سوى واسطة سهلة لاظهار اهلية حاملي القيثارة الرئيسيين في عصره .

وكان يطمع في ان يكون مسرحياً عظيماً وان يخلق لنفسه مكاناً ممتازاً . وكان يتبجح بانه الاول الذي ادخل في الملهاة التقسيم الى ثلاثة ايام ، وقد كانت ، حتى ايامه ، تقسم الى خمسة فصول ، وانه عرف تصفيق المتفرجين . ولكن المحاولات المسرحية التي قام بها ، والتي سنتكلم عنها فيما بعد ، قد اختفت وراء ظل لوب دي فيغا العملاق .

وقد احب من مسرحياته آخر مسرحية كتبها ، وتدعى « **لوس تراباخوس دي برسيلس اي سجيسموندا** » ، وهي رواية مغامرات وقعت في شمالي البلاد كتب على اهدائها في سنة ١٦١٦ : « الرّجل في الركاب ، واثناء آلام الموت ». اما عقدة الرواية ، المتشابكة الصعبة الاتباع ، فهي غير ذات موضوع ولا تستعمل الا لربط هذه وتلك من الحكايات على الطريقة الايطالية . « انه سيكون اسوأ او افضل كتاب في لغتنا » ، هكذا كتب مؤلفه ، مضيفاً انه يجب ان يبلغ « ارفع درجة من الجودة ». ولكن مما يؤسف له ان الاعقاب لم يصادقوا على هذا الحكم .

ولكن قبل سنتين من نشر القسم الثاني من « دون كيشوت » وثلاث سنوات قبل موته نشر سرفنتس « الاقاصيص النموذجية » الاثنتي عشرة التي ستكفي وحدها

لوضعه في الصف الاول من المنشئين الاسبان .

وهو على حق ، من بعض النواحي ، يوم اكد في مقدمة حكاياته : « انا اول « نوفيلادو » (كاتب اقاصيص) في اللغة الكاستيلية». وقد دعاه تيرسو دي مولينا «بوكاسنا». والصحيح ان سرفنتس ، بتقليده هذا القاص الايطالي المخصب ، قد قدم الى بلاده امثلة ممتازة مما يمكن تقديمه من هذا النوع ، ونجح في الوقت نفسه في ان يجعل منها خلقاً شخصياً اصيلا صافياً .

والاقاصيص الروائية الموجودة في هذا الكتاب ذات دور محبب وهي تذكرنا بالقصص الصغيرة الاخرى التي تملك المزايا العائلية وحنها الكبير. ولكن الاقاصيص الواقعية او اللصوصية التي تقترب من الحياة الواقعية وتوضح تجربة المؤلف الغنية هي طرف اكيدة . ويجب ان نشير الى « جيتانيلا » السائغة التي عادت الى الحياة في « ازميرالدا » فكتور هيجو . وهي قصة غنائية للحب المزدهر في جو من العجائب البوهيمية . وقد كان هذا الموضوع منجماً ادبياً فيه كثير من الفتنة والحياة . ان « الزواج الخادع » و « غيور اكستريادور » تحيطان موضوع الشجاعة الابدي بالفطنة والتسليات المتنوعة . و « الليسانسيادو فيدرييرا » حكاية رجل مجنون مليء بالذكاء ، وهي تقريباً اول صورة تقارب صورة دون كيشوت . و « رانكونيت اي كورتاديللو » حكاية شابين وغدين خاضا معاركهما الاولى في العيوب ، كتبت بسهولة مرحة وحركة غير عادية تبعث عالم

اللص الاشبيلي بكثير من الالوان . وصفحات هذه الحكايات تنبض بمرح منعش ، وبنوع من التساهل الجمالي الذي يطهر كل ما يمكن ان يعثر عليه من سافل وقبيح ، وتجعل منه منظراً مسلياً مليئاً بالمقبلات .

واخيراً « الكولوكيو دي لوس بيروس » (محاورة بين كلاب مستشفى فالادوليد) المحتوية على صفحات هي اعمق ما كتب سرفنتس وألذها طعماً .

وفي جميع هذه الاقاصيص نجد الافكار العزيزة على المؤلف : نصائح في الحكمة العالية المستترة تحت الابتسامة الصافية لهذا الذي مزقته عواسج الطريق ، وسخرية دقيقة عميقة لا تصل الى درجة التجريد المر عند كوفيدو ، وشفقة بصيرة على مداعبات الحياة التي يشرفها القلق الانساني ويبررها . وفوق كل ذلك هذا الدور الايقاعي المنوع الذي عرف ان يشرح بتناسق اقل انعكاسات تفكيره شأناً .

ونثر سرفنتس لا يمكن تقليده ، و « دون كيشوت » هي البرهان الاكبر. وما من شك في انه ينقل الكثير من المهملات والحوادث الثقيلة والتكرار في اندفاع الارتجال الواثب . ولكنه يبقى ، رغم هذه العيوب الصغيرة ، نموذجاً طبيعياً لا مثيل له . فطلاوته السهلة الباسمة ، ومرونته الواسعة الرخية تلائمان جميع النبرات وتستطيعان رسم جميع الالوان . وفي عصر ضاع فيه معنى البساطة وذوقها فان دوران لهجات هذه اللغة ،

وسيرها الصريح ، وسذاجتها العذبة المذاق تجعل منهـــا شيئاً شاذاً لطيفاً . وقوة الشكل ونقاوته ذات توازن كامل مع قوة الاساس الاصيلة . وهذا النص المنقطع النظير هو اكبر شاهد على اللغة الكاستيلية في ذالك العصر الكبير ، ولغة سرفنتس تلك اصبحت منذ ذلك الوقت اماماً هادياً ونموذجاً يحتذى لكتّاب المستقبل .

٢ — الانسانيون[1] : ان الوجه الادبي الاعظم تركيباً في هذا العصر هو وجه كوفيدو . وهو شاعر وناثر ديني صوفي ، دنيوي حر ، روائي لصوصي ، كاتب فلسفي ، هجّـــاء لاذع راعب وسيد عبقري من سادة اللغة . وفيضان تفكيره المتعدد الاشكال ، وحذق انشائه العجيب ، يظهران في كثير من الانواع المختلفة . وهذا الكاتب الذي اشتهر بمواد شتى هو تركيب لهذا الكرب التأملي الذي يثقل على كل القسم الثاني من العصر الذهبي الاسباني .

فرنسيسكو دي كوفيدو اي فيلليجاس (١٥٨٠ — ١٦٤٥) : ولد في مدريد من عائلة تعود باصولهـــا الى جبل سانتندر ، ودرس في ألكالا وفـــالادوليد حيث عرف بحدة هجائه اللاذع . ولمـــا جاء الى مدريد ملأ العاصمة بضجة كتاباته القارصة واعماله المتعلقة بالشرف والحب . ولما كان صديقاً للدوق

---

(١) الانسانيون Humanistes : هم المتعمقون باللغات والآداب القديمة.

دوزونا نائب ملك نابولي فقد تبعه الى ايطـاليه ، وقـام ببعض المهام الدبلوماسية الدقيقة ، وهيأ مؤامرة في البندقية كادت ان تكلفه حياته واسقطته مع سيده . وبعد ان قضى زمناً في المنفى اعادته الى الحياة العاملة افضال الدوق دوليفار . ولكن قطعة هجـائية وجدت تحت محفظة الملك ، ومنسوبة الى الشاعر ، قد رمته بعصيبة جديدة ، فعرف عند ذاك سجن السراديب والحديد طوال اربع سنوات في دير سان ماركوس دي ايون . وخرج منه مريضـــاً سنة ١٦٤٣ ليموت بعد سنتين في بيته في مقاطعة منشا .

وقد تمرست فعاليته الادبية بجميع الانواع ، وكان احد الغنائيين الاول في عصره، وقصائده العديدة دعوب ماكرة على الغالب . وكان يشحذ مزراقه بقريحة مدوخة طاغية . اما غضبه من النساء، والاقوياء ، والكتّاب السيئين ، والوزراء الفاشلين، والنشالين من جميع الاجناس والطبقات فقد انفجر عاتياً وانهال عليهم في كتبه « لواس ، لتريللاس ، ريدونديللاس » بايقاعات عامية تشبه السيل . واستعار ايضـاً لغة البوهيميين في مقـالاته « جاكاراس » المتفلتة من كل لجـــام . وعارض غونغورا في قصائد «سونه Sonnet» ذات قيمة حسنة. ولكنه تعب في نهاية حياته من هذه الادوار الكثيرة فغنى عند ذاك المباحث الابدية الكبيرة للحياة البسيطة الزائلة، والموت . وسيطرت عليه فكرة الموت، هو الذي كان على الدوام مسكناً ملتهباً للحياة والتفكير .

وفي نهاية الوداع الاخير، مع ان الطريق لم تكن طويلة ، فقد عرف هذا الربي القاسي ان يجد نبرات ايمان رواقي مشرق في نسمة صادقة سامية .

ويظهر علمه الواسع في ابحاثه السياسية والتعليمية . وكتابه « سياسة الله » محاولة لتأسيس العلم السياسي على تعاليم الكتاب المقدس ، حيث تتفجر وطنيته الملتهبة ونزاهته الجريئة في كل صفحة . ورغم ان هذا الكتاب فاشل غير مرتب فان في بعض صفحاته تألقاً غريباً ويشتم منها رائحة رؤيا يوحنا ، وبعض مقاطعه كوابيس حقيقية من العبقرية .

وكتاب « ماركو بروتو » المؤلف سنة ١٦٣١ ، بعد اربع سنوات، هو شرح لمنتخبات بروتوس من تأليف بلوتارك . وقد عرض فيه كوفيدو من جديد افكاره السياسية والاجتماعية . وليس في هذا الكتاب مخطط ولكنه ذو قوة شديدة عميقة ليست لكتاب غيره .

وكتاب « البوسكون » المسمى ايضاً « غوان تاكانو » هو من انتاج سنة ١٦٢٦. وبطله « بابلو » المولود من حثالة الشعب يجعلنا نقتفي اثره في مجتمعات مريبة غريبة وصفها الكاتب بمقدرة نادرة . وليس هناك ما هو اوضح او امضى او اكثر عصبية من انشاء « بوسكون » . فهنا جميع ادوار اللغة العامية المألوفة، حتى لهجة سفلة النـــاس ، تختلط باللعب بالكلمات والفكر التي تقذفها روح كوفيدو ، التي لا ينضب معينها ، في كل صفحة .

وقد رسم ايضاً لوحة راعبة لمجتمع زمنه فاذا بجيشان قريحته المر يسوط هذا المجتمع بوحشية لا ينطفيء حقدها . اننا لا نجد هنا عاطفة غير مفرضة ، ولا دقيقة من التأثر النقي ، ولا استراحة في هذا الجحيم من العيوب والتدابير المنحطة ، بل نلمس الحد النهائي للنزعة اللصوصية ، والنزعة الواقعية المجردة بشكل هائل.

ولا يمكن التقدم في النزعة الريبية لو لم تكن « الاحلام » التي خرجت من القلم نفسه تذكرنا ان كوفيدو قد غاص الى الاعماق في التفسخ الاجتماعي .

وهذه « الاحلام » المكتوبة في شباب المؤلف والمنقحة في عدة مناسبات قد تمخض بها وفقاً للطريقة التقليدية : استعادة مسرة لاحلام مجنونة تذكر دائماً بالحقائق الاكثر استحقاقاً للتوبيخ. اما سابقاتها فهي «محاورات » لوسيان ، و« محادثات » إيراسم ، ولوحات الفلمنكي جيروم بوش . اما « الحكم الاخير » و « الغزال الشيطاني » و « حلم جهنم » فليست سوى رسوم موجزة . وتتغير اللهجة في «العالم المنظور من الداخل والخارج» و « حلم الموت » ، لان كوفيدو يشرّح فيها دون شفقة جميع انواع الاجتماعيات ؛ وقد اكتشف العيوب والمضحكات الخاصة بكل من هذه الانواع . ولكنه يؤكد في الوقت نفسه ان هذا المجتمع الفاسد لا يمكن ان يتحسن ، وان الانحطاط لا يمكن ان يتوقف ، وانه ليس له الا ان يضحك من كل ذلك .

ولكن طرفة كوفيدو في هذا النوع هي دون شك « ساعة

الجميع » (١٦٣٦) ، فقد كان مالكاً عبقريته تماماً حين كتبها ، واستطاع احد النقاد ان يقول انها « وصيته الكبرى». والقسم الاول منها يعرض امامنا جمعاً من النـاس على حقيقتهم طوال ساعة : اطبـاء سارقون ، نبلاء مزيفون ، مخبئو سرقات ، متصابيـــات ، شعراء غامضون ، وكل هؤلاء يرون اقنعتهم منتزعة ونفوسهم عارية. اما اللهجة فترتفع شيئاً فشيئاً، والعاصفة تصدّع ، وتزاد ضربات السوط شدة في كل لحظة .

وفي القسم الثاني ترك المؤلف جميع هؤلاء الاشخاص الزائفين ليهتم بالعظماء المارين عبر التـــاريخ : رؤساء جمهورية البندقية وجنوا ، ملوك فرنسا ، ملوك انكلترا ، غليوم دورانج الخ... واثناء مهاجمته الجميع فانه يعرض النظريات الكثيرة الجرأة، وغير المتوقعة في عصره . ويبدو محامياً عن القضية النسائية ، مدافعاً عن الزنوج بتأثر يشوبه الدعاب ، واقتصادياً ، وضد الجمهورية .

وقد قدم البرهان في عدة مواضع على بعد نظر سياسي سبق حكم التـاريخ . وفوق كل شيء فقـد عرض غنى انشائه : ذلك الأكـتال الذي لا يقاومه شيء ، وذلك الايقاع الشيطاني الذي يقمع ويستولي ، والتقـاء الكلمات البراقة المتلألئة ، وكل ذلك الغليان الذي تمر به ، باهتزاز ، جميع ملاحن الفكرة .

ان كوفيدو سيشغل دائماً في آداب بلاده مكاناً في الصف الاول بسبب انشائه وحده . انشاء دماغي يكسب العبارات الصعبة الفهم حياة قوية . وجملة مقتضبة مذكرة لا تحتفظ من

العالم الخارجي بسوى ميزات الكائنات والاشياء . وهي تدهش بفخامتها وحركتها اكثر من اي شيء آخر . والنفس لاهث عنيف، ومفرداته اكثر المفردات تنوعاً . وهو على هذا الصعيد لا يتخلى عن مركزه حتى لغونغورا . وعلمه الواسع اوقعه على تلك النزعة التفكيرية التي هو احد اسيادها . والنزعة التفكيرية Conceptisme كما هو معلوم ، هي الميل الى تعليق الافكار بعضها ببعض بطريقة صناعية غير منتظرة، وفق ظروف الكلمات التي تستدعيها .

وسينبجس من ذلك جديد من التفكير والكتابة يعلن انحطاط العصر الكبير ، واختلال توازن الشكل والاساس . وحتى في الفن ، تلك الاعجوبة الارادية ، فان الافراط في الزخرف سيقود الى الغريب الشاذ . ولكن كل هذا سيمثل بقوة شديدة ذلك العصر المليء بالتضاد، وعدم التلاحم، والتفخيم، والقلق . سيمثل نهاية النهضة التي ستموت قبل ان تتجدد . وسيكون كوفيدو فيها الكاتب — النموذج ، وما تلك بالمزية القليلة .

بلتازار غراسيان (١٦٠١ — ١٦٥٨) : انه يذكرنا بكوفيدو ويتممه ، فمؤلفاته منحوتة بجهد ومركزها في طليعة المؤلفات ذات النزعة التفكيرية . وكتابه « البطل » (١٦٣٠) صورة لرجل مسيحي سام ٍ مُمَثّل بشخص فرديناند الكاثوليكي . و « الكريتيكون » يضع روحاً عذراء يحملها رجل متوحش

في وجه مدنية منقّاة ويلاحظ ردود الفعل عندهـــا . و « لا آغوديزا اي آرت دي انجينو» (١٦٤٨) كتاب في النقد الادبي وهو اكثر مؤلفاته معنى اذ تبدو الدقة (آغوديزا) في نظره انها الفن السامي وعلامة العبقرية ، ويقدم لنا كثيراً من الامثلة مع طريقة محاكاتها. وليس الكاتب في رايه الا من كان تفكيرياً وانشائياً (معتنياً بالانشاء) بصيراً معقد الكلام . وهو نفسه كان يستعمل لغة غامضة ذات ايجـــاز متناه ، وبحث دائم ، وتعقيد خارجي وداخلي يتعب القارىء بشكل مخيف. ان الجمال يفيض منه ولكن يجب ان تكتشفه .

ويظهر غراسيان في مؤلفاته النقدية كما في عرضه الاخلاقي في «كريتيكون» كأنه رواقي ذو نظر ثاقب، يعرف الناس جيداً ويحكم عليهم بعطف شفوق . انه يصقل انشاءه الحاد البارع كما لم يصقله احد قبله. وصوره الزاخرة السريعة، ودوراته، ومناقضاته تحمل خاتم اصالة كبيرة . وهو يستحق ان يوضع بعد غونغورا وكوفيدو تماماً بسبب اتقانه الذي يبحث عنه طويلاً. وغراسيان معروف جداً في فرنسا وايطالية وانكلترا ، وكان شوبنهور يحب مؤلفاته محبة خاصة .

٣ ــ الادب المسرحي : ليس بصحيح ان جميع الشعوب كان عندها مسرح بالمعنى الدقيق . فالمسرحية يجب ان تعكس روح وعواطف وانحرافات مجتمع بكامله، ويجب ان تجد شكلاً اصيلاً متجاوباً مع الميول العامة ، فارضاً نفسه دون جدال .

وقد كان لفرنسا واسبانية هذا الحظ الممتاز بعد الاغريق وروما: المأساة في فرنسا ، والملهاة في اسبانية .

١ - **الاصول :** ولا يعني هذا ان مسرح الشعوب المعاصرة هو نتـــاج مباشر لمسرح الشعوب القديمة ، لانه لم يتشبه به في التقنية والمواضيع الا بعد ولادته بوقت طويل ، حيث كان يستمتع بحياة خاصة كنوع ادبي . والمسرحية الحديثة ولدت في الكنائس من الاحتفالات الطقسية، كما خرج المسرح الكلاسيكي قبلًا من الاديان الاغريقية والرومانية . وبعد، الم يكن الطقس المسيحي ، على الغالب ، تمثيلًا مؤثراً ، كالقداس مثلًا ، لاحدى المسرحيـــات التي بلبلت الانسانية ؟.. ان هذه الطقوس ، المسرحية بشكلها ، يمتزج فيها التعبير الشعبي المجرد للايمان : من رقصات ايمائية، وغناء، وموسيقى. اما العنصر العلماني والدنيوي فقد خيف منه ان يشوش الطقوس الدينية ويفسدها .

وقد انتقل التمثيل ، بشكل تقدمي ، من الجوقة الى صحن الكنيسة ، الى الباب ، الى الساحة العامة ، الى قصور الكبراء، واخيراً الى فناء البيوت . وفي اسبانية ، كما في غيرها، لا يمكن تحديد التواريخ الاكيدة لاصول هذا المسرح، ولكنه سيتطور هنا على صعيد ملائم بفضل قوة العاطفة الدينية ، ومخيلة الشعب الحية ، وفخامة الاحتفالات التقليدية .

٢ - **المسرح السابق للعصر الذهبي :** ان الشواهد الاولى على هذا المسرح هي لاتينية : « المسرحية الطقسية » التي كان

يمثلها رجال الدين داخل المعابد منذ القرن التاسع حتى الثالث عشر ، و « الالعاب المدرسية » الاكثر حرية في سيرها ، والتي كانت تجري في المدارس .

ان « الاوتو L'auto » مسرحية غامضة ذات فصل واحد، ظهرت فيها اللغة العامية والرومانس اول مرة . و « غوامض الملوك ماج » التي كتبت في القرن الثالث عشر تشهد، في المدة القصيرة التي عرفت بها ، على بعض الفائدة المسرحية .

ورغم بعض المحاولات الوجلة المترددة مثل « تمثيل دلنـــا سيميـــانتو دي نوستر سنيور » لغومز منريك (١٤١٢ ؟ - ١٤٩٠ ؟..) فان المسرح الاسباني لم يظهر بشكل حقيقي الا مع جوان ديلا أنسينا (١٤٦٠ - ١٥٢٩) الذي اعتقه وعممه واغناه . فقصائده الرعـــائية الصغيرة ، وقصيدة « فيلينو » ، وكتاباه « اوتو دلربيلون » و « لافـــارسا دي بلاسيدا إي فكتوريانو» هي مؤلفات مسرحية مميزة بمواضيعها ولغتها الشعبية وقد مثلت في جميع القصور .

و « لاسلستينا » المنسوبة الى فرناندو دي روجـــاس ، والمطبوعة اول مرة سنة ١٤٩٩ ، ليست سوى عمل انتقالي بين المسرح والرواية . وهذه الطرفة النثرية في القرن الخامس عشر هي الاولى ، تاريخياً ، بين الروايات اللصوصية ، وهي ، بشكلها الحواري ، الكتاب الاول الذي عالج موضوعاً انسانياً بحتاً بشكل تمثيلي .

والمأساة – الملهــاة « كاليكست وماليبه » تسرد في ستة عشر فصلاً في بادىء الامر ، ثم في واحد وعشرين فصلاً ، حكاية حب ناشىء لشاب وفتاة تعطف عليها الوسيطة الهرمة « سلستين» التي اشعلت بواسطة احاديثها في قلب الفتاة غراماً حاراً لعاشقها ووضعت في الوقت نفسه تحت رحمتها خادمي كاليكست اللذين قتلاها في النهاية بسبب المال . وحين اراد كاليكست ان يدافع عنهما امام العدالة سقط من البرج الذي ذهب اليه ليزور حبيبته وقتل . اما ماليبه فأصابها اليأس وانتحرت ، وينتهي العمل برِثاء سامية حول الحيـاة والحب . ان واقعية هذه المسرحية ، وحقيقة صفاتها ، وعمومية واحكام بسيكولوجيتها ، وانشاءها البارز المدهش ، كل هذا جعلها تمثل على جميع مسارح العالم .

٣ – الملهاة : ظهرت في نهاية القرن السادس عشر وملأت كل القرن السابع عشر بحياة واسعة زاخرة. وصمدت عند سقوط آل هابسبورغ ومجيء آل بوربون ، وقاومت التأثير الفرنسي والانحطاط المسرحي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . اما اليوم فان ملهاة لوب وكالديرون ، المعدلة تعديلاً خفيفاً ، هي المسيطرة عند جيراننا (الاسبانيين) ، وهي التي تغذي المؤلفين المسرحيين الوطنيين القلائل ، وكذلك المؤلفـات التي لا تزال تهب عليها ريح لوب الكبير الشعبية .

ماذا يفهم بكلمة ملهاة Comedia ؟ انه تعبير واسع جداً

يضم جميع انواع المسرحيات سواء كان مفعولهـــا كوميدياً او فاجعاً ، باستثناء المسرحية الدينية او الطقسية المسماة « اوتو » وانواع اخرى مختلفة كالدعـــابة ، والرواية الموسيقية الصغيرة Vaudeville او « زارزويلا » ، واساطير الجن الميثولوجية .

والملهـاة تمثل حادثة تاريخية او خيالية ، ويمكن ان تكون نتيجتها سعيدة او تعسة . وفي الحالة الاخيرة فانها تشبه كثيراً المأساة ـ الملهاة tragi-comédie عند الفرنسيين. فما هي العناصر التي تؤلفها ؟ انها مزيج من المأساة والملهاة يستعير من النوع الاول اشخاصه المشهورين، والاعمال الكبيرة، والرعب والشفقة ، ومن النوع الاخير الموضوع الخـاص ، والضحك والمهازحات . وقد قال لوب نفسه : « انها عادة اسبانية نجحت في مزج الاشخاص بالانشاء ، معاكسة للفن » .

واسم لوب مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالملهاة الاسبانية . ويبدو انه هو الذي ابتدعهـا ، ونستطيع ان نعتبره اباً للمسرحية الجديدة . وما من شك في ان هنـــاك اناساً غيره قد جهزوا مادتها ولكنه هذبها وصقلها . ان عناصر العمل المسرحي كانت موجودة ولكنه اكسبها التلاحم وجعل منها كلًّا متناسقاً .

وكان لوب يعلـّم وجوب الاقلاع عن فصل ما هو كوميدي عما هو مأساتي ؛ والطبيعة نفسها تعلمنـــا ان نجمع بين المرح والصرامة . ان وحدة العمل لا غنى عنها ، ومع ذلك فقد كان لوب يدخل ثنائية مسرة في العمل ، مثل موليير ، وكتّابنا

الهزليون لن ينسوا ابداً ان غراميات الخدم تسير متوازية مع غراميات السادة، على مخطط آخر وبلهجة اخرى ، ولكن وفقاً لمنطق واحد وايقاع واحد . اما وحدة الزمان فلم يهتم بها احد ولم تكن موضوع كلام .

عند وجود الموضوع يقسمه المؤلف الى ثلاثة فصول او ايام. وكانت الملهاة فيالسابق ذات اربعة فصول ولكن كريستوبال دي فيرويس (١٥٥٠ — ١٦١٠) قد نال، كسرفنتس ، شرف انقاصها الى ثلاثة فصول. وهناك نقطة مهمة يجب العمل بها: هي تأجيل بلوغ الفائدة المسرحية . لا يجب لاي سبب استشفاف نتيجة المسرحية ، بل يجب تأخير النهاية الى منتصف الفصل الاخير على الاقل .

ليوضح المؤلف افكاره نثراً ولكن عليه ان ينتهي شعراً . ان كل ملهاة في القرن السابع عشر هي منظومة ، ونظمها ذو تنوع مرتب . وقد كتب لوب دي فيغا : « ان الشكوى تتوضح في العشاريات (قصيدة من عشرة ابيات) ، و «السونه Sonnet » تلائم من ينتظر او يناجي نفسه ، والقصص تتطلب الرومانس . وكل ما ينتج من الثمانيات فهو جميل ، والثلاثيات تصلح للافكار الرزينة، والرباعيات للحب» . ويمكن ان تضاف الليرا Lira الى هذا المزيج القياسي ، وهي عبارة عن مقطع مؤلف من خمسة ابيات او ستة ، والسيلفا Silva وهي مزيج حر من احد عشر بيتاً وسبعة ابيات . ولكن ما ذكره لوب

هو الشيء الاساسي . اما الذين اتوا بعده ، ونخص منهم بالذكر كالديرون ، فقد عدلوا هذه المتنوعات .

ما هو حجم هذه المسرحية ؟ — اربعة دفاتر للفصل ، والجميع اثنا عشر دفتراً اي ثمان واربعون ورقة ؛ هذا هو القياس الصالح . وقد سخر لوب بلطف من المجمعين حين وجه اليهم هذا الكلام : « نعم ، انا بربري . لتدمغني فرنسا وايطالية بالجهل ، فانا راض . ولكن ماذا استطيع ان افعل ؟ انني ألفت ، بهذه التي انهيتها هذا الاسبوع ، اربعمئة وثلاثاً وثمانين ملهاة ، وهي كلها ، ما عدا ستاً منها ، قد اقترفت ذنباً عظيماً ضد الفن » .

ولوب ، في اصفى ايام حياته ، يأخذ مؤلفاته المسرحية باعتبار حقير ، ولكنه لم يشعر بنوع من الحنو حيال مسرحياته البربرية الا عندما مالت شمسه . فقد شاهد تقدم المسرح المدهش ، وانتشار الكوميديا غير العادي . وفي سنة ١٦٣٢ ، اي قبل موته بثلاث سنوات ، كتب بشيء من الكبرياء : « ان بدء فن الكوميديا مدين لي رغم اني ابتعدت عن قواعد تيرانس[1] Térence » .

وقد قال حقاً . فلوب ، في نهاية القرن السادس عشر ،

(١) تيرانس : شاعر هزلي لاتيني ولد في قرطاجة (نحو سنة ١٩٠ — ١٥٩ قبل المسيح) وقد قلد المؤلفين الاغريق وميناندر على الخصوص .
(المترجم)

تلقى من اسلافه مسرحية مرتبة ترتيباً سيئاً ، من نوع مزيج ، وشكل متردد ، نظمت وفقاً لأهواء المؤلف. وقد اختار هذه المسرحية كما هي لان الجمهور الاسباني قد اعتادها وتذوقها ، ولكنه اعطاها الحياة والاتزان . ووسع اطارها بشكل غير عادي وادخل فيه جميع المواقف المسرحية الممكنة، مغترفاً من التوراة ، والميثولوجيا ، والتاريخ القديم ، واخبار القرون الوسطى ، والاساطير ، والروايات ، والحوادث المعاصرة ، والحياة الاسبانية في القرن السابع عشر .

وفضلاً عن ذلك فقد خلق نماذج ، وجعل لكل نوع اجتماعي لغة وسيراً يلائمانه ، ورسم بعض الصفات من هنا وهناك . واخيراً نظّم استعمال جميع ايقاعات الشعر الوطني. هذا هو عمله، ومهما كان امر هذا العمل فانه كاف تماماً ابناء مجده .

٤ — المؤلفون السابقون للوب دي فيغا : ما هي اسماء المؤلفين الذين خلقوا وشهروا الملهاة والذين يجب ان لا نتركهم منزوين في ظل لوب الكبير ؟

ان لوب دلنا على المؤلف المسرحي الشعبي الحقيقي اذ قال : « يبدأ تاريخ الملهاة من رويدا Rueda الذي سمع به كثير من الناس الذين لا يزالون احياء . »

والكوميديات الاربع التي نعرفها له لا تساوي هذا الجهد ، ولكنها دشنت مسرحاً وطنياً حقيقياً. اما مسرحياته الصغيرة،

واكثرها شهرة هي « الزيتونة » ، فانها مسلية صادقة ، ذات نبرة لذيذة ، وانشاؤها انشاء معلم .

وقبل رويدا ، في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، فان تورس نهارو (مات سنة ١٥٣١) قد نشر مؤلفاته المسرحية بعنوان « بروبالاديا »، وهي ست كوميديات مسبوقة بتمهيد هو تمثيل تاريخي علمي وحقيقي لهذا النوع كما يمكن ان يفهم في عصره . وكان تأثيره كبيراً على الكتّاب المعاصرين .

والبورتغالي جيل فيسانت (١٥٣٦ – نحو ١٦٤٩) شاعر كبير بلغتي شبه الجزيرة ، وقد ثقف المسرحين الكاستيلي واللوزيتاني معاً . و « ثالوثه ذو المراكب الثلاثة » (الجحيم والمطهر والجنة) نجح في احياء المواضيع الرمزية البحتة على المسرح ، بغنائية مؤثرة . وفي مسرحيتيه الفروسيتين « اماديس دي غولا » و « دون دواردوس » ، وفي دعاباته ، يجري الشريان الشعبي الاكثر كياسة وحياة . ومع ان مسرحياته مثلت في بلاط البورتغال ، فانها تسحر بنبراتها وصفاتها .

جوان ديلاكيفا (١٥٥٠ – بعد ١٦٠٩) ، هو فنان غير كامل ، وغير مبدع ايضاً حين يشير بنقل الحوادث ذات الصبغة الوطنية الى المسرح ، ويتنكر لوحدات ارسطو[1] . وكان احد الاوائل الذين اغترفوا عن سعة من كنز الرومانسيرو الذي لم يمس بعد تقريباً .

---

(١) وحدات الزمان والمكان والعمل . (المترجم)

وسرفنتس، سيد الرواية غير منازع، غامر ايضاً في المسرح.
وقال لنا هو نفسه انه كتب من عشرين الى ثلاثين مسرحية .
ولن نذكر منها الا اثنتين طبعتا سنة ١٧٨٤ : « إلتراتو دي
ارجل » ، وهي صورة ملونة لحياة الاسرى في الجزائر ؛
و « لانومانسيا » التي نجد فيها تعبيراً محموماً عن النزعة الوطنية
عولج بكبرياء فاجعة عز نظيرها .

والفالنسي غيلن دي كاسترو (١٥٦٩ – ١٦٣١) يستحق
ان يحيا بمسرحيتيه عن شباب السيد ومآثره . و « لاس
موسيدادس دل سيد » هي مختارات مسرحية من تقليد شعبي
قلد فيه لوب افضل تقليد . ولا نجهل ما فعل كورناي حين
اختارها بدوره .

٥ – لوب دي فيغا (١٥٦٢ – ١٦٣٥) : ولد « اعجوبة
الطبيعة » هذا في مدريد سنة ١٥٦٢ . وكانت حياته مزيجاً
مدهشاً من المغامرات الروائية ، والمواطف العنيفة ، والفضائل
البورجوازية . وكطفل ناضج فقد بدأ الكتابة في العاشرة ، ثم
تعرض لبعض المغامرات الغرامية ، وقام ، ككاتب ، باعمال
لا تصدق وتابع ذلك حتى نهاية حياته . وكان متطوعاً على ظهر
« الارمادا التي لا تُغلب » ، ونجا من الفاجعة ، واصبح اميناً
للسر عند بعض السادة الكبار . وتزوج وترمل عدة مرات ،
وتميزت حياته بثلاث مراحل من الحب : حبه في شبابه لاليونور
اوزوريو الممثلة الهزلية التي سيجعل منها بطلته « دوروتيا » ؛

وميكائيلا دي لوجان زوجته وهو في ريعان العمر ، وقد انجب منها سبعة اولاد؛ واخيراً مرتا دي نيغارس، وهو الحب الكبير الفاجع في نهاية حياته .

ولوجوده ناحية بديعة ومؤلمة معاً . فانه وقد رزح تحت وطـــأة اكثر التصرفات جنوناً لم يخفف من زيارة المرضى في المستشفيات ، وقد جلد نفسه في زنزانته ، وتألم بعمق من حظ اولاده السيء : فأحدهم مات في ريعان شبابه ، والآخر هرب وراء المغامرة في اللحظة التي اقترب فيها الشاعر من الكنيسة ليتلقى الاوامر المقدسة سنة ١٦١٤ ؛ وكان عمره يومذاك اثنتين وخمسين سنة .

وشعر في شيخوخته ان الجمهور قد اهمله مظهراً استياءه من مؤلفاته الاخيرة ، ومات بعد مرض قصير سنة ١٦٣٥ ، وكانت جنازته جنازة ملك .

ومؤلفـــاته كثيرة . وكتاباته غير المسرحية تضم واحداً وعشرين كتاباً في جميع انواع الشعر ، وبعض الاقـــاصيص الصغيرة من الشعر الملحمي والتعليمي ، وبكلمة واحدة ، جميع الغنائيات .

وقد اعترف قبل موته انه كتب الفاً وثمانمئة ملهاة واربعمئة « اوتو » دينية . ونعرف له اليوم ثلاثاً واربعين من هذه ومئة وستاً وثلاثين من تلك .

وعالمه المسرحي يستمد مواضيعه من جميع الجهات : التوراة والميثولوجيا ، حياة القديسين والتاريخ القديم ، اخبار واساطير القرون الوسطى ، اقاصيص الايطاليين ، الحوادث المعاصرة ، الحياة الاسبانية في زمنه ، وكل هذا موجود عنده . وتشمل مسرحياته التاريخية جميع العصور ، ولنذكر اكثرها شهرة : فيانتوفيجونا ، الميجر ألسكالد الواي ، بريبانزا او الكمندادور دي اوكانيا ، الكاباليرو دي اولميدو . انها مسرحيات ريفية تزدهر فيها حياة الريف التي يستطيع لوب ان يجد لها لهجات لا تنسى ملأى بالفتنة والمتعة .

وكوميدياته عن القديسين كثيرة ولكنها لا تبلغ مستوى كوميديات تيرسو دي مولينا او كالديرون . بيد انها تشع بشعر فرنسيسكاني كثير .

ومسرحياته الروائية او كوميديات الاخلاق والعادات كثيرة : الماجيستر لوكاس ، صنارة فنيس ، ابنة الابريق ، جرأة بيليز . والاخيرة منها تاريخياً تنم عن قريحة نشيطة متوثبة تسبح في اشعار تدير الرأس .

والحب على انواعه موصوف فيها : الفسق ، الحب ايام الشباب ، الحب الفاجع ، الغيرة ، الى جانب عاطفة الشرف وعاطفة المتدين الحي الشفوق . وقد استشف في « فيانتوفيجونا » صعيد العواطف الجماعية .

انه شاعر العالم الذي يعيش فيه ، يعني اسبانيته . وقد مثلها

بكاملها . وتظهر لنا مخيلته اللون والاهتزاز بشكل لغة زاخرة متعجلة . وكان مسرحه الحاذق مجدداً بتمثيله جميع المواضيع المسرحية ، وقد اخضع هذا المسرح الى انسجام علمي ريفي معاً ، وما من شك في ان العمق يعوزه ، وكذلك الرنين الانساني الواسع . ولكن مهما كان الامر فهو صورة بديعة لعصر وبلاد.

٦ — معاصرو لوب : غبريال تيليز Téllez المعروف باسم تيرسو دي مولينا (ولد في مدريد نحو سنة ١٥٨٣ ومات في سوريا Soria سنة ١٦٤٨) وهو يشكل مع كالديرون ولوب « الثالوث المبجل » المسرحي للعصر الذهبي . وهناك من يجعله مساوياً لعملاقي المسرح ، ولكنه في جميع الاحوال قريب منهما بعدد مؤلفاته وميزاتهــا . وهذا الراهب ، الذي شغل اكبر مركز في نظام رهبنته دون ان تكون له علاقة كبيرة مع عصره ولا مع معاصريه ، قضى كل حياته من دير الى دير دون ان يترك اثراً في اية مدينة سكنها . وكتاباته وحدها هي التي تجهزنا بالمعلومات عن شخصيته .

وكان مؤلفاً مخصباً لانه اعترف بكتابة ثلاثمئة كوميديا في اربع عشرة سنة . وتأثير لوب عليه لا يحتاج الى برهان ، وقد اعلن تيرسو انه تلميذه المعترف بفضله .

ومع ذلك فان مسرحه يتخطى مسرح معلمه من الناحية النفسية ودرس الطبــاع . فهو ملاحظ ممتاز للكائنات البشرية ،

وعلى الخصوص النساء اللواتي يحتللن المكان الاول في مؤلفاته .
وكان هذا الكاهن ينظر اليهن بعين بصيرة وبدون تساهل ،
حيث يبدو المعرّف على الغالب تحت ثوب المؤلف المسرحي .
وقد ابرز بنقش ظاهر محبب بطلات «لابريدانسيا» في «الميجر».
وهي لوحة شائقة للمعارك الداخلية التي اقلقت حكم فردينانـد
الرابع ، وكذلك بطلات « لاغاليغا ماري هرناندز » .

وهو هجّاء لا يرحم ولا يلين ولا يساير ذوق المتفرجين ،
فقد كتب ليصلح العيوب ويجلدها . ونرى هذا الكاهن احياناً
يصف الاحابيل الغرامية التي ينصبها الجنس الضعيف لضعف
الرجال. ومن عناوين نجده انه كان اول من وضع على المسرح،
في « البورلادور الاشبيلي » ، النموذج المسرحي لدون جوان
وجعل منه مخلوقاً قوياً يضارع اكبر الميزات المسرحية . وقد
ظهر دون جوان بفضله عند المسرحيين العالميين . وهو ليس
شخصاً مأساتياً ولكنه انفجار وصورة لا تدرك للرغبة الابدية.

ويمكن ان نتذوق في « البورلادور » كل المرارة النوعية
لهذه المؤلفات المسرحية والتي تفلتت فجأة من اختلاط المادة ،
ببساطتها العظيمة والتي لا تعرض مطلقاً اصطدام اشخاص
فرديين .

والمواضيع الدينية كانت بحكم الطبع موضوع وحي لهـذا
الكاهن الاخلاقي الذي يلقي على العالم نظرة تشاؤمية لا ترحم :
انتقام تامار ، الميجر اسبيغادورا ، لارينا دي لوس ريس ، وله

ايضاً كتاب « الهالك بسبب عدم الايمان » وهو اعظم كتاب في المسرحيـــات الدينية التي كتبت في اسبانية وعمل مسرحي حاذق يضع على المسرح مشكلة اللاهوتيين الرهيبة: اختيار المجد السماوي الالهي الازلي الممكن وجوده مع الحرية والجدارات الشخصية . وقد كتب ميناندز اي بيلايو : « انها المسرحية الاولى عندنا التي يمكن ان توضع فوق مسرحيات شكسبير » .

اما الطرف فكثيرة بين كوميدياته الاخريات ، ومنها : المجهول في القصر ، دون جيل دي لاس كالزاس فردس .

وبعد، فاذا كان مسرح لوب هو مسرح وضعيات، فبامكاننا ان نقول ان مسرح تيرسو هو مسرح اشخاص وفكَر .

اما رويز دي آلاركون ، ومونتالفان ، وفرنسيسكو دي روجاس (الذي يجب ان لا نخلط بينه وبين مؤلف «سلستين») وموريتو هم مؤلفون دون اهلية ويجب ان يذكروا بعد تيرسو ولوب .

آلاركون (١٥٨٠ – ١٦٣٩) : لا تعوزه القوة المسرحية في مسرحيته « حائك سيغوينا » او في « غانار اميغوس »، ولا المرح الجذاب في « لافرداد سوسبيخوذا » التي استقى منهـــا كورناي مسرحيته « الكذوب » . وقد تطور هذا النوع معه متجهاً نحو ملهاة الطباع . وانشاؤه المتقن جعل منه كاتباً يقدره الذوق المعاصر على الخصوص .

مونتالفان (١٦٠٢ – ١٦٣٨) : تلميذ لوب المفضل وقد كتب له سيرته ، وكتب ستين مسرحية ، منها « عشيقات ترويل » ، وهي موضوع تقليدي نالت نجاحاً مدهشاً .

فرنسيسكو دي روجاس زوريللا (١٦٠٧ – ١٦٦٠) : كان مهتماً بان ينقل الى المسرح اعظم الخطوط المميزة لثقافة عصره . وهو مؤلف « مـــا من احد سوى الملك » ، وهي مسرحية تمجد الامانة الفروسية ، ولا يزال تمثيلها يثير الحماسة في صدور اسباني اليوم .

موريتو (١٦١٨ – ١٦٥٧) : هو اكثر المؤلفـــين المسرحيين اتزاناً في زمنه . وكان على الغالب يقلد من سبقه ولكن ليفضلهم . وهو يمثل صاحب الصنعة الذي يعرف تمامـاً جميع عناصر فنه ويستخرج منها الافضل . اما اعظم كوميدياته فهي «الدسدن كون الدسدن» التي تُعلّم ان التظاهر باللامبالاة يهيج الحب. وقد رسم صورة مضحكة للمعجب بنفسه في «اللندو دون دييجو » . ويمتـاز هذا الكاتب الانيق بتنوع الصفـــات وتصوير العواطف الانسانية . وقد كتب احد الاسبان : «اذا كان الكارون هو بلوتنا notre Plaute[1] فان موريتو هو تيرانسنا notre Térence » .

---

(١) بلوت : شاعر لاتيني هزلي ولد في اومبري (نحو سنة ٢٥٤ – ١٨٤ قبل المسيح) ، اما تيرانس فقد اشرنا اليه في غير موضع من هذا الكتاب .
(المترجم)

٧ — **كالديرون** : بدرو كالديرون ديـلا باركا (١٦٠٠ — ١٦٨١) : كان منذ موت لوب حتى نهاية القرن السابع عشر سيداً للمسرح الاسباني. ويجب وضعه فوق الجميع الى جانب « وحيد العصر[1] » الذي جاء على اثره .

ولد مـع القرن في مدريد . واصبح جندياً في ايطـاليـة والفلاندر، ودخل في سلك الرهبان عند بلوغه الواحدة والخمسين واصبح كاهناً فخرياً للملك فيليب الرابع . ومات مثقلاً بالسنين واختفى معه الدور الادبي المتألق في العصر الذهبي . وكتب ما يناهز السبعين « اوتو » دينية ، وهو نوع لم يجاره احد فيه ، ومئة واحدى عشرة كوميدية . ورغم اننا لا نزال بعيدين عن فيضـان لوب الذي يشبه السيل فان كل نوع عالجه هذا موجود عند ذاك . ان كالديرون لم يضف شيئاً ولم يبتدع شيئاً بل رفع، ببساطة ، الى اعلى درجة من الاتقان نوعـاً ادبياً قد انطفأ بانطفائه .

وحمل الى المسرح مواضيع عاطفية كبيرة لاسباني عصره : الاخلاص للملك ؛ الشرف الشخصي المرتكز ليس على سلوك كل فرد بل على حشمة نساء العائلات وامانتهن ؛ الايمان الكاثوليكي المطلق ؛ روح الفروسية . ومسرح كالديرون ، اكثر من اي مسرح آخر، يمكن ان يبدو اصطلاحياً لمتفرجي زمننا، ولكن الفن المسرحي لم يكن قط اكثر حقيقة واكثر وطنية .

---

(١) المقصود به لوب دي فيغا .

وكان الاتجاه عند كالديرون محصوراً بالصنعة المسرحية التي تقلقه ، ولكن مسرحه سام بسبب الروح التي يشرحها ، روح المؤلف وروح العصر . وليس له من يجاريه في صدق بعض تمثيلات المأساة ، وبالقطع الغنائية البديعة التي كان هذا المسرح مليئاً بها . انه لم يضع كثيراً من مسرحيات المآسي الكبيرة بل مشاهد جميلة ملأى بخطوط ساطعة هي تمارين ادبية فاخرة .

والافكار الصافية تتعارض عنده مع الجرأة المدهشة ، ولهذا السبب استطاع ان يثقف بشكل لا مثيل له ذلك النوع الخاص الغريب « للاوتو الدينية » .

وهذه المسرحيات ذات الفصل الواحد، والتي كان موضوعها الوحيد هو تمجيد الوجـود الحقيقي للرب في الذبيحة الالهية ، كانت تمثّل بفخامة على مفارق المدن الاسبانية الكبرى في يوم عيد الرب . وابدى كالديرون فيها مخيلة فريدة . ويوجد بين هذه المؤلفات طرف المسرحية الطقسية التي كان اكثرها تألقاً : الدفينو اورفيو ، لافيدا إسيانو (التي منحه موضوعها افضل ملهاة له) ، المسرح العالمي الكبير ، لاسينادل راي بلتازوار .

واذا كان لاينازعه احد في هذا النوع فانه اقتسم مع لوب صولجان ملهاة الاخلاق المسماة « كابا إي اسبادا » . واللوحات التي رسمها للحياة في عصره متنوعة حية ، وتصويرية ملأى بالحركة . وقد وصف المجتمع الذي يعيش فيه باشراق وتلوين لا مثيل لهما .

وتغترف مسرحياته التاريخية من المصادر الاكثر تنوعاً ، حيث اخضع هذه المصادر للفائدة المسرحية ، على انه كان يتأفف في غالب الاحيان من التاريخ . واجمل هذه المسرحيات هي دون شك « الكالد دي زلاميا » التي عالج لوب موضوعها قبلاً. ويبدو فيها بطله الفلاح بدرو كريسبو الذي يمجد بشكل اخاذ تلك البساطة الكاستيلية النبيلة التي يبهت امامها اكثر الكبرياء صلابة .

ولكن عاطفة الشرف هي النابض المسرحي الذي اكسبه اعظم نبراته تأثيراً ، و«طبيب صاحب الشرف، الاهانة السرية، الانتقام السري، وسام عديم الشرف » مسرحيات تشرح بحمية ضارية تلك العاطفة الاسبانية الاساسية التي كان كاتبنا يمجدها الخاص .

وتفوقه في المسرحية الدينية اكسبه لقب « شاعر السماء » . وهناك ثلاث من طرفه المسرحية تعطي فكرة صحيحة عن المسرحية اللاهوتية وهي « الحياة حلم، الساحر المدهش ، التعبد على الصليب » .

ف « الحياة حلم » ذات شهرة عالمية تشرح الفكرة القائلة ان رجل الطبيعة هو نوع من الحيوان المتوحش الذي لا ينتصر على غرائزه الخشنة الا بالعقل المرتكز على الايمان. وكل شيء وهمي وكذب من ناحية العقل وليس هناك من حقيقة الا في العالم السرمدي .

و « الساحر المدهش » تبتدىء مثل «فوست» وتنتهي مثل « بوليبكت »[1] . وتمتزج فيها كثافة الفكرة بتألق الانشاء ، والحمية الشعبية المضافة اليها تضفي على هذا الكتاب العجيب برقشة علمية وبربرية مما يجعل له مكاناً على حدة .

و« التعبد على الصليب » دعاها بعضهم «طرفة الفن المسيحي» والبعض الآخر « تحدياً للعقل والصواب » . وفي هذه المؤلفات كلها يتحد عمق الفكرة بمحركات العواطف الاعظم تأثيراً .

واذا كان لوب دي فيغا يجسد عبقرية الامة فان كالديرون يوضح عبقرية عصر. انه الاسباني القح حتى نخاعه الشوكي، ولكنه اسباني عصره ، القرن السابع عشر . وما من شك في انه اكبر شاعر اسباني اتجه نحو الشكل المسرحي . وكانت شعبيته داخل الحدود وخارجها عظيمة منتشرة ، وكان شاعراً دينياً ووطنياً عظيماً كيّف الملهاة وفقاً لعبقريته الخاصة واعاد اليها صوت العظمة والعاطفة الحارة التي لم يبلغها لوب .

٨ — مصير الملهاة وقيمتها : يبدو رغم الاسماء الساحرة لبعض الكتّاب الكبار ان الملهاة قد فقدت اهميتها منذ أدخلت في اطار الآداب العامة . والكوميديا ، في عصر تألقها الكبير، لم تُقبل او تُقلد كما كانت المأساة الفرنسية طوال قرن، ولم يكن يُرى فيها سوى مجموعة معلومات عن الوضعيات ،

---

(١) فوست رواية لغوته وبوليبكت مسرحية لكورناي . (المترجم)

ومخزن كبير للحيل والالعاب المسرحية يستسهل التموين منه زمناً طويلا . وقد كان هذا لان المسرحية الاسبانية هي شعبية في اساسهـــا ، وقد فهمت وكتبت لترضي فضول وعواطف الامة الاسبانية دون تمييز بين الطبقات ، وهي لا تطلب من المتفرج اية تهيئة خاصة او ثقافة مهذبة، ولا توحي سوى التصفيق للمتفرجين الجهلة ..

واذا لم يكن هناك جمهور متعلم فلا يمكن ان تحتوي على درس معمق في الطبائع والعواطف، وليس هناك من تأليف او انشاء. وحين تتعرى ملهاة القرن السابع عشر من صفات الشكل العـــالية فلا يمكن ان تبقى حية . ان فقدان تحليـل حركات النفس ، وضعف التأليف ، واستعمال منظوم غنائي اكثر مما هو مسرحي ، هو ما ننعاه عليها .

ومن ناحية اخرى فان عيوب الارتجال كانت شؤماً عليها ، واخيراً فقد كان كتّاب الملهاة اناس ارضهم وطبقتهم وزمنهم .

ومع كل هذا فان للملهاة قيمة وثيقةٍ تاريخية لانها رسمت لنا الحياة الاسبانية في جميع مظاهرها في عصر ظهرت فيه الاصالة الاكثر قوة . وفضلاً عن ذلك فانها اغنت كنز الادب المسرحي بان القت في سوقه تلك الكتلة الضخمة من المواضيع والمواقف التي نهبها الكثيرون واثروا على حسابها .

الفصل الخامس

القرن الثامن عشر

ان هذا العصر العاري من المجد ، والذي يمتد منذ وفاة كالديرون سنة ١٦٨١ حتى مجيء الرومنطيقية ، يعوزه الكتّاب الكبار ولكنه انتج ارتفاعاً محسوساً في مستوى الثقافة الوسط.

وفيه عنصر خصب: هو التأثير الفرنسي الذي يشرحه ويوضحه تسنم السلالة البوربونية أريكة العرش. وهذا التأثير يعني رجوع اسبانية الى المجاري الروحية العالمية الكبرى : ايطالية التي لم ينقطع التبادل معها ابداً ، وانكلترا لاول مرة . اما الحواجز التي كانت تعزل البلاد فقد ازيلت ، والافكار والكتب ، والمؤلفات في الخارج قد ظهرت في شبه الجزيرة وانتشرت هناك بفضل المهاجرين . ولم تستطع جهود الجامعات الرتيبة والاكليروس والشعب المحرّض على التعصب ان تفعل شيئاً ضد

هذه التيارات الجديدة . وسيزداد هذا التقارب قوة في القرنين الآتيين اللذين سيذيبان العنصر الاسباني في البلبلات الكبرى وابحاث العالم الفكري .

انه عصر ثوري سيعود الى اتباع الطريق التي أهملت في بدء القرن السادس عشر للوصول الى عزلة ذات كبرياء تقود في النهاية الى الانحطاط . وهو دور نقد ونضال روحي تنضج أثناءه ثقافة جديدة . وكتّابه يشرّحون ضعفهم ، ويعرفون قلة عددهم ، ويقررون ميزانية اخطائهم الكبيرة الماضية . وبعد زمن من الجدل الاسلوبي الذي يمثله الراهب البنديكتي فيغو Feigoo يأتي عصر تقليد آلي تقريباً يقود البلاد الى المناخ الروحي الدولي الذي لا بد منه لئلا تموت .

وقد ظهر التطور نفسه على الصعيد الحكومي . فان فيليب الخامس حمل الى مدريد جو فرساي ، واسس الاكاديميات الملكية تقليداً لباريس . ولكن لم يستطع هو ومن جاء بعده ان يفرضا اية نهضة في النفوس او في الطبائع والعادات . وقد اسرع الانحطاط حينما أتى ملك الهي يريد ان يرفع بلاده الى مستوى بلدان اوروبا الاخرى : هو شارل الثالث . وكان هذا العاهل يمثل في السياسة والادارة ذلك التقويم للمعنى التاريخي الذي مهدته النزعة المناهضة للاصلاح .

العلماء والنقاد : منهم اينياسيودي لوزان ، وهو دبلوماسي وعالم ، كتب «الفن الشعري» مستهدفاً اخضاع الشعر الاسباني

للقواعد المتبعة في « الامم المثقفة » ، وقد تأثر كثيراً بواضعي القواعد الايطاليين والكلاسيكيين الفرنسيين. ويعتقد ان الشعر يجب ان يكون له هدف اخلاقي تعليمي . وقد اثار كتابه نقداً عموماً واثر تأثيراً موفقاً على الذوق السيء المسيطر . وكان يدعمه في هذا النضال جورج بيتيلاس المجّاء الذي كان يتكلم بلغة العقل .

ولكن احد الوجوه الكبيرة في هذا القرن الباهت هو وجه جيرونيمو فيخو اي مونتينغرو (١٦٧٦ - ١٧٦٤) الذي كان يمثل روح النقد تمثيلاً اساسياً . وهو ذو معارف واسعة، ورجل التحليل والفحص الحر تشكّل مذهبه العقلي بفضل قراءته مؤلفات ايراسم Erasme[1] وبايل وفونتينل Fontenelle . وحارب في مؤلفاته الخرافات الشعبية والاعتقاد السهل بالمعجزات وعواطف الوطنية الزائفة . وكان دقيقاً في ملاحظاته ، متطلباً البرهان ، محاولاً ان ينقل الى ابحاثه الاسلوب العصري في الصدق العلمي الموضوعي . ولا نجد عند فيخو تأثيرات عميقة في الفن بل استقصاء يقظاً لمعارف عصره مع نظرات شخصية تتخطى في بعض الاحيان هذه المعارف بشكل عجيب . وكانت رغبته في المعرفة موسوعية : فلسفة ، رياضيات ، تاريخ ، سياسة ،

---

(١) ايراسم : عالم هولندي وكاتب وفيلسوف ولد في روتردام سنة ١٤٦٧ ومات في بال ١٥٣٦ وكان احد كبار الانسانيين في عصر النهضة . وقد استحق لقب « فولتير اللاتيني » بسبب اشالة وروحه . (المترجم)

بيولوجيا ، ادب . وقد جمعت محاولاته الكثيرة في كتابه « تياترو كريتيكو » و « كارتاس اريديتاس ». ومع ان هذه المحاولات قد بطل مفعولها فانها تمثل جهداً ضخماً ، في انشاء واضح سهل يزخر بالنزعة الغاليسية وتركيب الكلام المستعمل في غاليسيا مسقط رأسه .

ويأتي بعده **فراي مارتان سارميانتو** (١٦٩٥ – ١٧٧٠) وهو راهب بنديكتي مثله تخصص في دراسة علم النبات واستحق اعظم مديح من لينه[١] Linné وكتب « مذكرات عن تاريخ الشعر والشعراء الاسبان » عرض فيها مفهوماً جديداً للاسلوب التاريخي وشرح التأثير الايطالي – الفرنسي في الادب الوطني .

واليسوعي **ج . فرنسيسكو دي ايسلا** (١٧٠٣ – ١٧٨١) تعرض لتطهير فن الفصاحة الديني في كتاب مليء بالدعابة : « تاريخ الواعظ الشهير فراي جيروندبو دي كامبازاس » ولا يزال هذا الكتاب يقرأ بلذة. وترجم الى الاسبانية مؤلفات جيل بلاس ليزاج ليعيد الى بلاده مغامرات يزعم انها سرقت منها .

ومن الطبيعي ، في هذا القرن ذي الشعر القليل ، ان نجد كتّاباً للاسطورة الشعرية Fable فكتب **فليكس ماريا دي**

---

(١) لينه : عالم طبيعي سويدي ولد في ريشولت (١٧٠٧ – ١٧٧٨) وهو معروف على الخصوص باعماله في علم النبات اذ صنف النباتات وجعلها اربعة وعشرين صنفاً مستنداً بذلك الى عدد سداة نسيجها وترتيبها . (المترجم)

سامانييغو (١٧٤٥ — ١٨٠١) اساطير شعرية اخلاقية عديدة تقليداً لفيدر ولافونتين. اما توماس دي ايريارت اي اوروبيزا (١٧٥٠ — ١٧٩١) فقد ترجم موليير وفولتير ونظم قصيدة طويلة في الموسيقى . و « اساطيره الادبية » التي تقاضي العيوب الفنية وفقاً لقانون بوالو ذات سخرية وحيوية بديعة تخبىء تحتها ما يضيق به ذوق المؤلف .

وهناك كاتب واحد يمكن وضعه على صعيد فيخو نفسه ويعتبر الروح الاكثر سمواً في عصره ، هو غاسبار ملخور دي جوفيلانوس(١٧٤٤ — ١٨١١) ، وليس هناك شاعر يعادله في زمنه او من يجمع الى هذه المواهب الحس السياسي والحس العملي اكثر منه . وقد تقلب في حالات كثيرة : حاكم في اشبيلية ، فقد حظوته مع كاباروس سنة ١٧٨٩ ، اصبح وزيراً معه ، سجن في ميورقة طوال سبع سنوات (١٨٠١ — ١٨٠٨)، أسهم في المجلس الاعلى للعصاة ، طالب باجتماع الجمعية العمومية ، ومات بينما كان هارباً امام الفرنسيين المنتصرين .

كان « ابو الوطن » هذا رجل دولة ، واقتصادياً ، واديباً يتمتع بوعي وموهبة نادرين . و «تقريره حول قانون الاراضي» مخطط عميق للاصلاح لو طبق لجنّب البلاد ثورة . ونثره الانيق الواضح يحتفظ دائماً بذكرى دور الخطابة المستعار من النظام الكلاسيكي . واشعاره ذات اناقة صافية ، باردة قليلاً ومتكلفة ، يشتم منها ذكرى مدرسة سلمنكة الشعرية التي رفع عمادها فراي

لويس دي ليون . وهناك اثنان من مؤلفاته المسرحية يستحقان التنويه : مأساة « البيلايو » وملهاة « الديلنكوانت هونرادو »، اذ كان لهما حظ من النجاح .

المسرح : ليس الفن المسرحي في هذا العصر سوى انعكاس امين للثقافة الاوروبية يومذاك . فهنـاك ترجمات فرنسية ممتازة تفرض على الجميع قاعدة الوحدات الثلاث. وغارسيا ديلا هويرتا نفسه الذي هـاجم كورناي وراسين بقساوة لم ينج من هذا التـأثير . وقد نال في ايام شارل الثالث نجاحاً عظيماً بمسرحيته « راشيل » التي تمزج النبرة البطولية لمسرحيات لوب وكالديرون بمتاعب قواعدنا الكلاسيكية .

ومع ذلك فقد بهت اسمه الى جانب سلالة الموراتانيين. وكان نيقولاوس فرناندز دي موراتان الاب (١٧٣٧ – ١٧٨٠) العدو البارز للمسرح الوطني والمدافع الضاري عن الفن المسرحي الفرنسي . ومأساته « هورميزاندا » لم تستطع ان تدعم نظرياته ولكنه لايزال حياً في افكار النـاس بفضـل قصيدته البديعة « لافياستا دي توروس في مدريد » .

وولده لياندرو فرناندز دي موراتان (١٧٦٠ – ١٨٢٨) هو مع رامون ديلاكروز اشهر ممثل لمسرح القرن الثـامن عشر. كان تلميذاً لجوهري في طفولته، ثم نال بعد ذلك مركزاً هاماً ، مركز مترجم رسمي ، واصبح مديراً للمسارح في بلاط

جوزيف بونابرت ، ثم تبعه الى المنفى ، واستقر في بوردو اولاً ثم في باريس حيث مات .

وموراتان هو النموذج الكامل « للمتفرنس » ومؤلفاته المسرحية تأخذ الوحدات الثلاث بعين الاعتبار ولكنها مع ذلك تشهد ، في محافظتها الحكيمة ، على اصالة تشدها الى حمية الكوميديا التقليدية . وافضل مؤلفاته ، « استجابة الفتيات » ، لوحة اخلاقية لاذعة تعالج بمهارة ، وبانشاء نشيط خبيث ، موضوع الزواج الغرامي وشدة سلطة الاهل. و « لاموجيغاتا» صورة للعبادة الزائفة ، وهي ذات لهجة اكثر خشونة ، وقيمة اجتماعية كبيرة. و « الكوميديا النيفا » او « القهوة » التي تنقد الطبائع الادبية هي رغم نجاحها صورة مشوهة دون نعومة كبيرة. وقد ترك موراتان ترجمتين كاملتين « لمدرسة الازواج » و « الطبيب رغماً عنه » . وعرف شكسبير ايضاً .

ولكن تصرفاته الانيقة لم تجعله يحصل من الجمهور على النجاح الضخم الذي كان من نصيب المدريدي رامون ديلاكروز (١٧٣١ — ١٧٩٤) اكبر مسلٍّ للجمهور في زمنه والمشهور بمشاهده العديدة الخارجة من قلم رشيق خصب. ان شعب مدريد القديمة بكامله يعيش في هذه المسرحيات الصغيرة المنبثقة عن « بازوس » لوب ورويدا ووسائل العصر الذهبي . وقد شرح المؤلف ذلك حين قال : « ان اولئك الذين شاهدوا رقصات جميع الطبقات الاجتماعية ، والذين ينقطعون الى الزيارات بدافع

البطالة والعيوب والاحتفالات ، والذين رأوا راسترو في الصباح وبرادو القديم في المساء، يستطيعون القول اذا كانت هذه نسخاً ممـــا رأت اعينهم وسمعت آذانهم ام لا ، او اذا كانت هـذه اللوحات لا تمثل تاريخ عصرنا . » امـا اشخاصه فهم ايضاً نماذج غويا Goya .

انها تمثل ابتسامة في نهـاية العصر الذي شاهد انهيـار مجتمع وقيـام نظام جديد في وسط اهوال الحرب الاجنبية والمعارك الاهلية .

الفصل السادس

القرن التاسع عشر

١ - **اتجاهاته :** هذا القرن الثوري الذي لم تنتصر الثورة فيه يمثل لاسبانية ، التي تبحث عن نفسها ولم تجدهـــا ، محاولة انضمام الى التيـارات العـالمية ، سواء كانت في السياسة او في الادب .

وتحتم انحطاط البلاد من خلال الف معركة عقيمة تخطت هذا القرن : حرب الاستقلال ، الحرب الكارلية[1] ، ضيـــاع المستعمرات الاميركية ، وحروب السلالات المالكة . ومع ذلك فان اسبانية التي تعبت من رؤية نفسها على الهامش حاولت الاتصال روحياً ببقية اوروبا ، ولم تكن بالمهمة السهلة . فقد

(١) الكارلية : نسبة الى الدون كارلوس (١٨٣٣) وحفيده (١٨٧٣ - ١٨٧٤) . (المترجم)

ظلت الاحزاب طوال القرن تضع الدساتير وتنقضها ، الى ان تأسس حكم دستوري على النسق الاوروبي ، بمجلسيه ، وكذلك التصويت العام ، واحزاب تتناوب الحكم .

وفي الادب ، فان ردود الفعل التي لوحظت سابقاً عادت الى الظهور ، واجتازت النزعتان الرومنطيقية والطبيعية الحدود حيث وجدتا فيما وراء البيرنه مجاري مماثلة اعطتهما قوة فريدة ولوناً اسبانياً قوياً .

والرومنطيقية المجلوبة وجدت نفسها حالاً على اتفاق مع روح البلاد . والاهمية الجديدة التي نالتها الطبقات الوسطى ، والانحطاط الاقتصادي والاجتماعي للارستقراطية ، وعاطفة الشعب المفرطة ، الملكية اكثر من الملك والكاثوليكية اكثر من البابا ، كل هذا قدم للرومنطيقية ارضاً ملائمة . والاكليروس نفسه خضع للافكار الجديدة . وكانت الغزوة الفرنسية والهجرة عاملين هامين في نشر الدعاوة والمذاهب والجماليات الاجنبية . وبسبب عودة المهاجرين الى وطنهم نفذت الحركة الانسكلوبيدية، والرومنطيقية الفرنسية والانكليزية الى اسبانية ، بينما اعجبت المانيا بالمسرح الكلاسيكي الاسباني ورفعت كالديرون الى الأوج .

والشيء الاساسي في القانون الرومنطيقي يكمن في التعبير . وليس هناك من مواضيع مبتذلة لان الفن يجعل كل شيء مثالياً . والخليط الرومنطيقي ، في شبه الجزيرة اكثر من غيرها ، وحد بين الموحيات المقدسة والتجديف ، بين السرور والالم ، بين

اليأس والتماسك ، وبين الشعر والكائن الحسيس .

وقد تغير الشكل بدوره : اذ امتزج الشعر والنثر في المؤلف الواحد ، وتغلب الترتيب المتري ، وعادت الايقاعات المعتبرة انها قومية — كايقاع الرومانس مثلاً — الى مكان الشرف. اما الانواع التي تثقفت اكثر من سواها فهي : الرواية التاريخية حيث سيطر ولترسكوت ، الاسطورة الشعرية والنثرية ، المسرحية التاريخية ، الفصاحة السياسية ، تصوير الطبائع في الاطار الاقليمي على الخصوص .

٢ — الشعر : مارتينز ديلا روزا (١٧٨٧ — ١٨٦٢) هو الكاتب الانتقالي الممتاز الذي اقام جسراً بين مدرستين . ان اشعاره ونظرياته كلاسيكية ، ولكن المسرحيات النثرية التي كتبها ، وعلى الخصوص « مؤامرة البندقية » (١٨٣٤) ، هي رومنطيقية ، مع المزج الذي لا بد منه بين المأساة والملهاة (الذي لم يكن بضاعة جديدة في اسبانية) واللون المحلي المشهور.

اما الحركة فقد اسرعت وثبتت بواسطة الدوق دي ريفاس المولود في قرطبة سنة ١٧٩١ . وهو سيد وسياسي كبير نفي الى انكلترا ، وعاش في ايطالية ومالطة ، ثم اصبح بعد ذلك وزيراً ، فسفيراً ، فرئيساً لمجلس الوزراء ، وكان له بذلك حياة رومنطيقية تتلاءم مع نظرياته الادبية .

ومؤلفاته الثلاثة المهمة هي : « البندوق العربي » المنشورة

في باريس سنة ١٨٣٤ ، وهي قصيدة كبيرة رنانة تتجابه فيها المدنيتان المسيحية والعربية ؛ و« لوس رومانسس هيستوريكو» (١٨٤١) ، وهو ديوان اساطير وطنية مسكوبة في قالب الرومانس التقليدي ، ذو نزعة اسبانية مؤثرة احياناً وكثيرة المبالغة ؛ ومسرحية كبيرة شعرية ونثرية بعنوان « دون الفارو او قوة القدر » ، وهي هرناني[1] المسرح الاسباني ، يقود القدر الحوادث فيهـــا بتصوير متقن ؛ والجمهور فيها شخصية اولية ، والحركة غضوب ثاثرة. و « دون الفارو » التي تبدو لنا اليوم عنيفة مبهرجة ، تسجل تاريخاً في المسرح الاسباني ، ويمكن ان تقاربها مسرحية « التروفادور » التي نالت اعظم نجاح في المسرح الرومنطيقي ، وهي من تأليف غارسيا غوتييرز ، ونظمهـا حاذق غني ، ومسرحي حقيقي ، ولكن انشاءها يبدو في ايامنا كتحريف فكه للنوع .

جوزه دي اسبرونسيدا (١٨٠٨ – ١٨٤٢): هو الشخص النموذج للمدرسة الجديدة ، وقد مضت حياته في فعـالية ثورية قوية ، فتـــآمر في كل مكان ، ونفي الى لندن حيث بلبلته مؤلفات بيرون ، ووقع في غرام محموم في لشبونة ، وحـارب على المتاريس الباريسية، ومات في الثالثة والثلاثين خائب الامل، بائساً ، مشهوراً .

ومؤلفاته الرئيسية هي قصائده « بيلايو ، الديابلو موندو ،

(١) هرناني : مسرحية معروفة لفكتور هيجو . (المترجم)

تلميذة سلمنكة » ، وقصائده الغنائية التي مجد فيها ابطالاً اعزاء على الذوق الرومنطيقي : القرصان ، المتسول ، المحكوم بالاعدام ، الجلاد . وفيها ايقاع ولهيب . وفي قصيدته الفلسفية « الشيطان ـ العالم » ذات النزعة التشاؤمية ، يجب ان نفصل عنها مرثيته الرائعة « الى تيريزا »، وهي صرخة سامية من الحب والحزن مرسلة الى تلك التي فقدها .

جوزه زوريللا (١٨١٧ـ١٨٩٣) : من فالادوليد، ويمثل نقطة النضج الرومنطيقية التي منحها مزاجه ، ككاتب سهل فصيح ، رونقاً وبهاء . وعرف المجد وهو لا يزال صغيراً لانه قرأ اشعاراً وثابة واغمي عليه على قبر الصحفي لارا . واحتفلت به صالونات مدريد والاندية الادبية . ورحلاته الى فرنسا والمكسيك هيأت الفرصة لاستقباله والاحتفاء به ، وقد توج في غرناطة شاعراً وطنياً، وعرف جميع انواع النجاح، ومات فقيراً. وزوريللا شاعر بديهي ذو مخيلة لا ضابط لها ، ويملك موهبة الكلمة ، وفنه حساس فيما يتعلق بالميل الى الشكل ، وذلك بشكل مبالغ فيه. وشعره خارجي كله، ونظمه باهر، وتفكيره معدوم ، واستيحاؤه المزدوج ، الديني والوطني ، قد احيا اسبانية القديمة في الاساطير التي تؤلف الرومانسيرو الخاصة بها . « القاضي الصالح ، افضل شاهد ، عدل الملك دون بدرو ، غرناطة » . واعاد ابهة الفتح . وهنا يبدو فضل مؤلفاته .

وزوريللا كتب للمسرح مسرحيات شهيرة منها « البونيال

دلغودو ، إلزباتيرو إي إل راي » ، وعلى الخصوص « دون جوان تينوريو » (١٨٤٤) ، وهي مسرحية خيالية دينية تعيد تجسيد صورة المـــداهن الاشبيلي ، وهي متخذة من اسطورة « مؤاكل الحجر » . وكان نجاحها عظيماً ، ولا يمكن لاحد ان يجاريه ، فمنذ قرن ، وفي كل السنين ، واثنـاء عيد جميـع القديسين ، فانها لا تزال تمثل دينياً في معظم مسارح اسبانية .

وبديهيته متألقة ، وايقاعه واضح كأنه نشيد عسكري ، والموسيقى السهـلة في اشعـاره جعلته يلعب في الرومنطيقية الاسبانية دور فكتور هيجو في فرنسا ، ولكنه هيجو الذي يردد دائمـاً « الشرقيـات » و « روي بلاس » ، و « اغـاني الشوارع والغابات » .

ولم يكن هو الغنائي الحقيقي في ذلك الوقت بل غوستافو ادولفو **بيكر** Bécquer (١٨٣٦ — ١٨٧٠) . وقد ولد هذا الشاعر في اشبيلية ، وتيتم باكراً ، وجاء وهو صغير الى مدريد ليجرب حظه الادبي . وطاف اثناء مراهقة قاسية فقيرة المدن الكاستيلية القديمة التي اثر فيه عبوسها وعظمتها كثيراً . ولكن حياته المرهقة ، وغرامياته التاعسة ، وموته المبكر ، كل هذا منعه من تحقيق عمل واسع .

واشعاره المجموعة بعنوان « ريماس Rimas » هي شكاوى محزنة حقيقية ، مقتضبة ، ذات شكل منسجم . اما مواضيع هذه المجموعة التي حشد فيها كآبة رخية وحرارة مستمرة رصينة

فهي: زوال اوهام الحب، رتابة الايام الربداء، جحود المحبوب، وحدة الاموات. وغنائيته المجردة من كل فيضان بديهي تنفذ الى النفس وتحتفظ بهزة خاصة بها. ويمكن ان نجد عند هايني وهوفمان مصادر تأثراته وغنائيته. ولكن ما هو اكيد منها موجود في « النشيد العميق » الاندلسي الذي تتجمد لهجته الجارحة في بعض النداءات الفاجعة الاحادية الوتر.

وبيكر شاعر ايضاً في اساطيره النثرية ذات الاسلوب المباشر الذي يعلق بالذهن. ونذكر منها: مايز بيريز الاورغانيستا، المونتي دي لاس آنياس، الكوديللو دي لاس مانوس روجاس.

غاسبار نيناز دي آرسي (١٨٣٤ – ١٩٠٥): ولد في فالادوليد، ولعب دوراً هاماً في سياسة زمنه. وهو كلاسيكي يضيف الى الاتقان النثري غنى الرومنطيقية الصوتي، ومفكر قلق اثار مشاكل ثقيلة معاصرة في اشعاره التي تتلقى من هذه المشاكل نسمة قوية وتعرض على الغالب مسرحية الضمير. وآلامه الوطنية يجددها نشر « صراخ المعركة » سنة ١٨٧٥ التي تذكرنا قوتها الدائمة وكمالها والمشاغل الموجودة فيها بافضل قصائد كنتانا الذي ينتسب اليه احياناً. انه استعمل جميع المقاييس بسهولة ولكن العذوبة الرقيقة المقنعة تنقصه.

رامون دي كومبوامور (١٨١٧ – ١٩٠١): من

استوريا[1] ، وهو ذو روح معتدلة ذات نزعة ابيقورية مصانة باعتناء . وظل وقتاً طويلاً يحمل لقب شاعر كبير ، ولكن هذا الرأي قد اهمل اليوم مع ان آثار الشاعر لا تزال تقرأ كثيراً لانه ثقف شعراً سهلاً ذا نزعة عاطفية بريئة وفلسفة تشبه الانتاج الحالي لاغنية الشوارع المحبوبة . وهو يرضي النفوس المتوسطة بواسطة جرعة حاذقة من السخرية الكاذبة والتأثير العديم النبل اللذين جعلا اشعاره تنتشر انتشاراً كبيراً .

وكان يعتقد انه اتى بنوع شعري جديد بتقسيمه قصائده الى « دولوراس doloras » وهي قطع مقتضبة تشرح عاطفة كئيبة ، والى « هيموراودوس humorados » رديئة ولكنها مستحبة . انه بيرانجه عصره بانشاء فقير ولكنه سريع وعادي احياناً ، وتفهم باق ، وحمية مغربلة . وهو يمثل بلا شك ردة القارىء ضد تكلف التفخيم بالكلام في الرومنطيقية ، وتذوق المقاييس ، والسلام الروحي ، والاعتدال في كل شيء . وظلت مهارته في النظم تخدع وقتاً طويلاً . فقد كان كاتباً محظوظاً .

٣ ــ المسرح : ان ممثليه الرئيسيين هم شعراء ذلك الزمن : الدوق دي ريفاس ، هرتز نبوخ ، زوريللا الذي تكلمنا عنه .

---

(١) استوريا Asturie : مقاطعة اسبانية قديمة (وتدعى حالياً اوفييدو) وهي ناحية جبلية في البيرنه ضمت الى الكاستيل سنة ١٠٣٧ . ومنذ سنة ١٣٨٨ اصبح وارث تاج كاستيليا يحمل لقب امير استوريا . (المترجم)

واشخاص المسرح الرومنطيقي ومواضيعه لها كلها صفة عائلة واحدة : انها قدرية عاطفية تحاول التفلت من الحدود التقليدية التي فرضها المجتمع عليها، وتبذر اليأس ، والموت الاكثر سهولة من الحماسة ، ويدخل الاشخاص في كلامهم الشديد اللهجة ذوق المعاكسة او التضاد الموجود في اعمالهم .

وكان للكوميديا ، وفقاً لآثار موراتان ، بعض المتحمسين . اما اكثر كتّاب الكوميديا خصباً وتنوعاً فهو مانويل بريتون دي لوس هيريروس (١٧٩٦ – ١٨٧٣) اذ كتب ما يقارب مئتي مسرحية شائقة جميع ابطالها بورجوازيون تقريباً . وخطوط هـذا المسرح المرح المتنقل هي : عواطف حكيمة حذرة ، اخـلاق خجول ، ادراك مبتذل . ويملك بريتون الوضوح ، والذوق ، والروح . ويعرف كيف يعقد العقدة ، ويكتب الحوار اللطيف ، ويرسم بسخرية مجتمع عصر ايزابيل الثانية . ومن المؤسف انه لم يكتب نثراً . والحقيقة ان اشعاره ذات اسفاف ، ولكنه واع متماسك ، والعاطفة الهزلية في مسرحياته قاومت رغم بروزها القليل . وهذا كل ما يمكن ان نمدح به هذا الكاتب .

م . تامايو إي بوس Baus (١٨٢٩ – ١٨٩٧) : ثقف ملهاة الطبائع والعادات والمسرحية التاريخية، وهناك واحدة من هذه الاخيرة تدعى «مسرحية جديدة» ستنقذ اسمه من النسيان.

وهذه المحاولة الملأى بالاصالة كانت استشفافا لمسرح بيرانديللو[1] ذي « الاشخاص الستة » .

جوزه إشيغاراي Echegaray (١٨٣٢ – ١٩١٦) :
هو الممثل الاخير للمدرسة الرومنطيقية في المسرح . وقد حمله هذا الميل على ان يضع في مؤلفاته الحماسة الغنائية ، واستعمال الشعر ، والاندفاع العاطفي ، والحوادث السيئة التي تنهي العمل ، على الغالب ، بشكل فاجع . وتلازمه ايضاً فكرة التنازع الاجتماعية والنظام الاخلاقي اللذين يحدثان في جو واقعي . ومسرحه ، وهو صنعي على العموم ، ذو انشاء شعري يعلو عن الدرجة الوسطى ويُخضع مخطط العمل على الغالب لتأثير المشهد الاخير . ومع ذلك فهو يعرف ان يبني عملاً بشدة ويقوده الى النهاية بقوة ومنطق . وبفضله خفت وطأة الهوس الرومنطيقي ، واصبحت القوى المحركة معقولة واعتيادية . وافضل مؤلفاته « الغران غاليوتو » يرسم سيئات النميمة بعظمة . ولو كانت كتابته اكثر عصرية لأنتج تأثيراً حاراً في المشهد .

وقد مثل اشيغاراي وحده الفن المسرحي الكبير ، لبعض الوقت ، واوصلته شهرته الى ان يقتسم جائزة نوبل سنة ١٩٠٦ مع فريدريك ميسترال . وليس هناك من مقابلة يمكن اجراؤها

---

(١) بيرانديللو: مؤلف مسرحي وروائي ايطالي ولد في جيرجنتي (١٨٦٧ – ١٩٣٦) . وقد حاز جائزة نوبل سنة ١٩٣٤ . (المترجم)

بين الشاعر الاقليمي العبقري وهذا المؤلف المسرحي الحاذق ، وقد كان هذا اللقاء لمجده وشرفه .

وقد استمال المسرح الكاتالاني كاتبين يتمتعان بموهبة مسرحية اكيدة ، هما جاكين ديسنتا ومسرحيته « جوان جوزه » (١٨٩٥) هي النموذج للمسرحية الواقعية المتقنة ، وجوزه فليو إي كودينا الذي كتب ثلاث مسرحيات ملأى بالطعم الشعبي وهي «لادولوريس» ميال ديلا الكاريا» ماريا دلكارمن» والاخيرة مشهورة في فرنسا بعنوان « في حدائق مورسي » .

واخيرا فان انتشار « جنيروشيكو » او المسرح الصغير يجب ان لا ننساه . وقد رفع ريكاردو ديلا فيغا (١٨٣٩ — ١٩١٠) هذا النوع اللذيذ الى اعلى درجة من الكمال . ومسرحياته الشعبية القصيرة المسماة « ساينيت Saynete » ، والملقاة ، المغناة ، الراقصة ، ترسم لاسبانية ذلك الزمن لوحة صحيحة حية . وقد بُعثت حياة مدريد المألوفة ، والقرية والمعمل ، بلهجة من الصدق والانسانية تستحق الاطراء . واللازمات التي تزخرفها كانت موجودة في ذاكرات جميع الذين عاصروها ، وهي تشهد على طلاوة لاذعة ملأى بالفتنة . اما « لافربينا ديلا بالوما » لوحة الطبائع البديعة فلا يمكن ان يغيّبها النسيان .

٤ — مصورو الطبائع والعادات: ان النثر ، وهو اول ضحية للرومنطيقية ، قد استعاد حياته ولونه بفضل مقالات «الكوستومبر» ، وهي صور مقتضبة خفيفة لعادات ذلك الزمن

وصفاته ، بينما محبرو المقالات على طريقة فورناندز اي غونزالز، قد اغرقوا السوق ببضاعتهم من سنة ۱۸۳۰ حتى سنة ۱۸٦۰ . وكتّاب الطبائع المتحدرون الشرعيون من الواقعيين وكتّاب الروايات اللصوصية ، قد اعادوا خلق لغة هجـــائية ، تصويرية مطولة، وذلك بتصوير العيوب ومضحكات زمنهم على الخصوص. فتارة يحرقون بماء الفضة كاستيفانز ، وطوراً يسخرون بابتسامة رحيمة كميزونيرو، واحياناً يضعون في سخريتهم لهجة ساخطة ، مثل لارا .

رامون دي ميزونيرو رومانوس (۱۸۰۳ – ۱۸۸۲) : انه مؤرخ الاعمال والحوادث الصغيرة في العاصمة . وفي كتابه « اسيناس ماتريتانسس » وغيره قدم لنا وصفاً حياً لمدريد في عصره . وقد عين بتدقيق لحظة الانتقـــال التي تبدل اثناءها « الكورت Corte » ورثى لهذا التبديل، واقام نفسه مدافعاً عن الماضي . واظهر ، بكثير من الحـدة ، مضحكات المجددين الخرقاء في جرأتها ، ولكنه يضع في نقده كثيراً من الكياسة ، والمرح الطيب ، والبشاشة السموح التي تبعث على الابتسام ولا تثير الحنق مطلقاً .

سيرافان استيفانز كالديرون (۱۷۹۹ – ۱۸٦۷) : هو من طينة اخرى ، و « مشاهده الاندلسية » تبرز تحت قلمـــه بروزاً واضحاً. وهذا الكتاب الشهير الذي لا يؤخذ عليه سوى ركضه وراء بعض الكلمات المماتة في الانشاء يصف بسحر فني ،

شخصي جداً يذكرنا بسحر بول – لويس كوريه ، مبتكرات بلاده وعاداتها . وتلك الصفحات النموذجية الملأى بالالوان تبعث اليأس في المترجم واللذة في المنشىء .

ماريانو جوزه دي لارا (١٨٠٩ – ١٨٣٧) : هو ذو نضج مدهش ، وكان صحفياً كبيراً اصبح معه الهجاء الاخلاقي سياسياً واجتماعيـــاً . وغرامياته التي عوكست في فالادوليد جعلت منه نفساً صموتاً ، مغلقة ومتشائمة . وقد قذف نفسه وهو فتى في المعترك الادبي في مدريد ، وساعد بحرارة في عدة صحف ومجلات ، وجاءه النجاح واصبح شهيراً حين اجتاحه غرام مفاجىء لم يلق جواباً عليه فقاده الى الانتحار ، ولم يكن قد بلغ الثامنة والعشرين .

ان كل ريبية اسبانية المرة ورجعيتها الخاصة ضد تطلبات الواقع قد مدتا جذوراً عميقة في نفس لارا . وكذلك فان احتجاج كوفيدو الدائم ، والتمرد الثـــابت لكتاب الادب اللصوصي في العصر الذهبي موجودان عنده . وقد وطّن نفسه على عرض انحرافات السياسة المعاصرة ، وانانية الطبائع ، وتفاهة الصفات ، وكانت هناك مرارة ضارية تنير بحزن يائس حركته الاخيرة ودعابته ذات اللهجة القاتمة ، والسخرية العميقة ، وذلك المزراق الذي يمزق ويصور ، كل هـــذا وضعه فوق مصوري عصره المحبوبين . انـه حدس بمجيء غـــانيفه Ganivet وبشر بأونامونو Unamuno .

٥ — **الرواية :** لم يكن هناك سوى خطوة واحدة بين تصوير الطبائع المجزإ والرواية البروفنسالية والاقليمية . وقد اجتيزت بسرعة بفضل **فرنان كاباليرو** المؤسسة الحقيقية للرواية الحديثة .

سيسيليا بوهل دي فابر (١٧٩٦ — ١٨٧٧) : المعروفة بلقبها المذكور الذي رفعته الى اوج الشهرة . كانت مدينة لاصولها الامية باطلاع واسع جداً على الآداب الاوروبية . وهي مغرمة باسبانية الجنوبية ، موطن امها ، فارادت ان تصف فيها الطبائع ، والاخلاق ، ولغة سكانها الشعرية المرحة المغضية على الضيم . وكانت اول من وضع المبدأ الذي استعمله « الكومبتومبريون » في لوحاتهم الصغيرة : الرواية لا تبتدع بل تلاحَظ .

وفي روايتها الفضلى « لاغافيوتا » او زُمَّج الماء المنشورة سنة ١٨٤٩ ، وفي « عائلة الفاريدا » وعشرين رواية غيرها ، شاهد على نزعة تشاؤمية لا شفاء منها ، وعطف ذكي على كل ما هو محلي ، وارتباط وثيق نوعاً بافكار الماضي . ومؤلفاتها المحببة العديمة العمق تسجل التاريخ الذي تأسست به في اسبانية الدراسة التصويرية المنتبهة للعادات والطبائع البروفنسالية .

انطونيو دي ترويا Trueba (١٨٢١—١٨٨٩) : كان باسكياً — من مقاطعة الباسك — منفياً الى مدريد ، وقد كتب للترويح عن نفسه سلسلة من الحكايات التي تسر البسيكولوجية الموجزة . واذا لم ينل تماماً رضى الادباء فانه عرف ان يجد الطريق الى روح الشعب .

بدرو انطونيو دي آلار كون (١٨٣٣ - ١٨٩١) : ترك على الخصوص قصته العديمة النظير « القبعة ذات القرون الثلاثة » سنة ١٨٧٤ ، والتي احيا فيها الاندلس ايام شارل الرابع .

وهذه القصة التي منحته الخلود هي حكاية مستقاة من التقليد الشعبي ومنقولة بحيوية فاتنة مرحة بحيث اصبحت واحدة من اعظم القصص المسرة التي عرفها الادب الاسباني. وهذه الرواية الصغيرة التي نقلها الى المسرح مانويل دي فللا وكتب عنها فصلاً مشهوراً قد صفق لها الجميع على المسارح الغنائية الكبرى في عصرنا .

وبرد فعل طبيعي ، نشرت الرومنطيقية المنحرفة ذلك الميل الذي يفضل الرواية على جميع الانواع ويعطيها وعياً كاملاً بقيمتها ، الميل الى النزعتين الواقعية والطبيعية .

والميل الى الآداب الاجنبية المستأثرة بنقد ممتاز ، والادب الفرنسي على الخصوص ، قد اصبح متهافتاً . ولكن هنـــاك كتاباً احيوا هذا الميل وعلى رأسهم كلاران والكونتس دي باردو بازان ، وكان له مدافعون يذودون عنه ضد مناوئيه كما كان بيريدا حيال مناقضيه النظريين .

جوان فاليرا (١٨٢٤ — ١٩٠٥) : انه وجه بسيكولوجي تحليلي ، ودبلوماسي امي عـالم بلغات شتى ، يملك ثقـافة واسعة تغترف من اليـنـــابيع الكلاسيكية الصحيحـة ، ومعرفة عميمة

بالانسان تحت جميع المناخات . وهو عالم جداً بكل ما يشغل جمهورية الادب ، سعى جهده ليرضي النخبة القليلة في بلاده . وروحه اللطيفة المتفتحة على كل شيء توحد بين حسن الالتفات والاتجاه النقدي الاكثر دقة . واذا كان يمزج الشفقة الخفية على الضعف البشري بكتاباته فان هذه الشفقة لا تظهر الا بالجهد . انه شاعر انيق ليس اكثر ، ادرك حالاً ان طريقه الحقيقية في الرواية. واول رواية نشرها هي « بيبيتا جيمينيز » (١٨٧٤). وقد نجحت نجاحاً باهراً . وهي مسرحية بسيكولوجية بحتة ، وتجديدية كبيرة يومذاك، وملخصها ان تلميذاً اكليريكياً شغف حباً بارملة فتية، فناضل ضد هذا الحب وغُلب وانتهى بالزواج من المنتصرة الفاتنة . وقد عرض حالته النفسية في سلسلة من الرسائل ، الى عمه الكاهن القانوني ، تؤلف الرواية كلها . انها كثيرة التجريد ولكن الفن يطيب التحليل النفسي . ان مراحل هذا الحب وتقدمه ، وميزة الانشاء المرطبة بالينابيع الصوفية، جعلت من هذا الكتاب مأدبة للعارفين . وقد نجح فاليرا نجاحاً باهراً بالحكاية الفلسفية ، وقصته « اسليبيجنيا Asclepigenia » هي مثال ممتاز . ان هذا العقل المتزن ، والطيبة البشوش ، والنعومة النقية ، تلذ كلها للقارىء ، ويبدو ان الهيئة المبتسمة الريبية لسيلفستر بونار تظهر وراء اسم فاليرا ، لانه يفكر مثله على الغالب ويكتب بنفس الاناقة المنقحة المهدهدة قليلاً .

جوزه ماريا دي بيريدا Pereda (١٨٣٤ – ١٩٠٥) :

انه نموذج الروائي الاقليمي. وهذا الرسام لاقليم سانتندر، موطنه، اذا لم يبلغ المحافل العالمية فانه يظل اكبر روائي في عصره بعد غالدوس . فقد ادخل الايمان الى التقليد باصالة وشكل اكثر فنية من مزاحمه وصديقه ولكن بوسائل محدودة. انه يمثل الروح القديمة حيال الروح المجددة .

ولا يحتاج بيريدا الا الى زاويته الجبلية الصغيرة ليرسم الانسان والانسانية . انه لا يعرف القلق الذي يثقل على البلبلة الفكرية للنخبة . وقد نفذت اليه قيم عرقه وارضه التقليدية فاراد ان يدفق منها فضائل تكون مثالاً ، ويحارب العدمية nihilisme الخفية في مواطنيه مستنداً الى ارض الوطن ، ام جميع التعاليم . وهو عاطفي ملتهب في استمالة الناس الى مذهبه، فاذا حاول الاقناع لا يخفف من تلك السخرية الضارية التي اتته من اعماق الزمن . وهذا الاحمر يتطلع بوضوح ، وبشكل راعب ، الى انحرافات اشباهه وعيوبهم ويجلدهم دون رحمة . وحين ذهب يهذب اخلاقيته بمشاهدة الطبيعة بلغ السمو في مناسبتين او ثلاث ، إما بتصوير العزلات العالية الجبلية في قصته « بينياس اريبا » التي اعتبرها الجميع طرفته ، واما بوصف الحياة الحرة القاسية النتنة لصائدي اسماك سانتندر في قصته « سوتيليزا » ، واما في مشهد عاصفة شديدة ، وهكذا يحصل على اعمال كبيرة بتقنية بدائية ووسائل بسيطة جداً ، مجددة على الدوام .

وابطاله : سوتيليزا ، وموروغا ، والاب ابوليناار ، وبحارة الليفا، وبخيل لابوشيرا، ودون غونزولو غونزالز ديلا غونزاليرا، وكثير غيرهم ، تشكل صوراً بارزة قوية لامثيل لها . وحاول مرة واحدة ، بدافع المخـــاطرة ، كتابة الرواية المدريدية في « بدرو سانشز » ونجح بها تماماً .

ولوحات بيريدا ، فيما يتعلق بالنزعة الطبيعية الاسبانية ، لها قيمة لا يمكن مقارنتها الا بقيمة الرواية اللصوصية القديمة . وقد كان المجدد الجذري الاول في آداب عصره في لوحات الطبائع ، والهجاء السياسي، والاغاني الريفية ، ومأساة البحر الجشع الطامع بالحيوات البشرية .

بنيتو بيريز غالدوس : ولد في جزر كاناريا سنة ١٨٤٣ ومات سنة ١٩٢٠ ، وهو سيد الرواية في عصره. ويبدو انه كان نتيجة لجميع التيارات التي رأت النور منذ نمو هذا النوع . واذا تركنا جانباً محاولاته المسرحية التي افسدتها روح الحزب فان عبقريته تظهر في الروايات الواقعية الكبرى الكثيرة الحرارة .

ومؤلفاته الروائية الصرف ذات غزارة متنــاهية ، وافضــل مؤلفاته المختصة بالمخيلة هي « دونيا برفكتا » و « غلوريا » التي تعرض المشكلة الدينية حول اختلاف المـذاهب في الزواج ، و «فورتوناتا اي جاسنتا» و « أنجل غيرا » و «عائلة ليون روك» و « ماريا نيلا » وهي قصيدة فاجعة لاعمى وفتاة ريفية ، وله على الخصوص تلك اللوحة المؤثرة الراعبة معاً حول حيـــاة

المساكين في مدريد ، واعني « فيرا ريكورديا » .

ويجب ان نشير في عمله الضخم الى الخمسين مجلداً من « حوادث وطنية » التي حاول فيها ان يروي تاريخ بلاده القلق في القرن التاسع عشر منذ ترافلغار، وان يبرز اللحظات الاكثر اهمية بشكل حي يظهر فيه المؤلف انه مركز القصص . وهذه المحاولة الملأى بالاخطار ، والتي تلهبهـــا نزعة وطنية ذكية ، هي ناجحة على الغالب . وملاحظة الطبائع ، والجو التاريخي ، والبسيكولوجية الرومنطيقية متحدة كلها فيها بضبط وتوازن . ونشير على الخصوص الى الاجزاء التي تبحث حوادث «قادس» و « الثاني من ايار » و « حصار سراغوسة » حيث رسم لنـا غالدوس لوحة نابضة ذات رعشة ملحمية .

وصفاته الاساسية هي الحركة وطبيعة الحوار ومزج الدعابة بالتفاؤل في هذه الصفات تجعلنا نقابله بديكنز ، ولكن تفاؤلية غالدوس ليست من صنع حيـاة بورجوازية نامة ، بل هي آتية من اشعاعات القلب البهية .

ومهما كان غالدوس واقعياً حين عرف ان يصف ، ويحس ، ويكره مدريد في عـدم شاعريته الشائقة ، ومهما كان مهملاً في انشائه الذي يحمل كثيراً من الاصطلاحـــات نتيجة لقراءاته الواسعة ، فانه لم يخضع قط لخشونة الصور التي حـــاول ان يصنعها . وليس هنـاك من ادعاءات علمية او مشاغل غرامية ، فالرواية الواقعية تعيش وتستولي على الانتباه بسحر اوصافهـــا

الصادقة الطافحة بالكرم الرحيم والاخوة الانسانية التي تبلغ احياناً ، دون ان يحاول ذلك ، النزعة الغنائية الاكثر تأثيراً. واذا كان غالدوس يجعلنا نفكر ببلزاك، نتيجة لاتساع مقاصده، وبديكنز بسبب دعابته ، فانه يذكرنا بدوستويفسكي[1] ايضاً بتلك الطيبة التي تملأ جميع مؤلفاته ، وبالفونس دوده بسبب تلك الابتسامة التي تصونه من رقة القلب ، وذلك الذوق ذي الاعتدال البورجوازي حيث استطاعت بسيكولوجيته ان تكتشف بطريق المصادفة كثيراً من الفضائل المتألقة المتواضعة.

٦ — **النقد والاطلاع** : هنالك شيء جديد في هذا العصر ، فان نمو الصحافة سمح للنقد الادبي بتوسيع حقل عمله . وبعض الكتّاب ، امثال كلاران والسيدة باردو بازان اللذين يسرهما ان يكونا روائيين ، قاما بجهد عظيم في سبيل مقاضاة مؤلفاتهما ومؤلفات معاصريهما . وقد احدثت المجادلات التي اثاراها في المجلات والصحف تطوراً في الذوق العام ذا اتجاه تقدمي راهن. وقد ازداد الاقبال على درس آداب العصور الاخرى ، كأدب العصر الذهبي ، وازدادت معرفتها . اما المؤثرات الاجنبية فقد قدرت قيمتها بشكل اكثر تحرزاً .

اميليا باردو بازان (١٨٥٢ — ١٩٢١) : كانت ، مع كلاران ، الكاتبة المتحمسة التي ادخلت النزعة الطبيعية الفرنسية

---

(١) راجع كتاب « دوستويفسكي » في سلسلة إعلام الادب ترجمة ونشر « دار بيروت » .

الى اسبانية. وهي ذات اطلاع واسع وشهرة عظيمة في الاوساط العالية التي كان لها فضل في تشكيل ذوقها ، وكتبت روايات زاخرة ، تولستوية جداً من ناحية الفكرة ، ونسائية جداً من ناحية غنى الانشاء المطول ، منها : « لوس بازوس دي اولوا » و « لاسيرينا نغرا » و « لاكيميرا » ، ودراسات نقدية ظلت زمناً طويلاً تتمتع بالنفوذ . وفتحت كثيراً من النوافذ على العالم القديم ، وبفضلها اعتادت اسبانية التطلع الى الخارج لتتلقى تأثيرات جديدة .

ليوبولدو آلاس (١٨٥٢ – ١٩٠١) : استاذ من استوريا كان يوقع مؤلفاته باسم « كلاران » ويحمله هذه المهمة العسيرة . وافضل رواياته هي « لاريجنتا » ولكن نقده الادبي الضليع الجريء قد تخطى عصره . وحين نقرأ ديوانه « سولوس دي كلاران » لا يسعنا الا الاعجاب بعمق وثقافة هذا المعلم الذي لم تعطه الشهرة ما كان من حقه ان ينتظره منها .

وافضل ممثل للنقد الادبي العلمي هو مارسيلينو مينانديز بيلايو (١٨٥٦ – ١٩١٢) فقد كانت معلوماته موسوعية وذوقه صحيحاً . وتضم مؤلفاته كل الادب الاسباني تقريباً ، واذا كانت براهينه قد نوقشت بشدة لجهله احياناً ببعض القيم (بخصوص الكروسية Krausisme مثلاً) ، فان اتساع ابحاثه ، وروحه النقدية ، وامتياز اسلوبه ، كل هذا سمح له بتجديد بعض الدراسات ، والابتداع على الغالب في حقل لا يزال كل شيء فيه رهن العمل .

انه عالم باللغات والآداب القديمة ، وكاتب سير، وناقد، ومؤرخ، وشاعر ايضـاً . ومن كتبه : « هيستوريا دي لوس هيتيرو دوكسوس اسبانيولس » و « اصول الاقصوصة » و « تاريخ الافكار الجمالية » وكلها انصاب للمعرفة والعرض.

وسمح النضال البرلماني للخطابة السياسية ان تنمو . واشهر الخطباء والسياسيين في ذلك العصر هو **اميليو كاستيلار** الذي ترأس الجمهورية الاسبانية الاولى . ويمكن اعتباره مع آلاس وجاكين كوستا وانجل غانيفه انهم مهدو السبيل امام جيل سنة ١٨٩٨ الذي دشن القرن العشرين .

اما العالم القانوني **كوستا** (١٨٤٦ – ١٩١١) فقد عرض القضية الوطنية في كتابه « نظرية العمل القانوني والاجتماعي » . وهو الذي كتب العبارة المشهورة: « يجب ان تقفل ضريح السيد مرتين »، ويعني ذلك ان على اسبانية ان تبحث عن ذاتها في ذاتها وليس في المشاريع الخارجية المتروكة للصدف .

ولكن غانيفه Ganivet (١٨٦٢ – ١٨٩٨) هو الذي دفع الحركة الى الامام . ومؤلفاه الرئيسيان : « الايديااريوم اسبانيول » وهو من الكتب الاسبانية الاكثر عمقاً ، و « لوس ترابانحوس دل انفاتيغابل كريادور بيوسيد [1] Los Trabajos del infatigable creador Pio Cid » وكتاب « الايدياريوم » هو استقصاء ألمعي لروح اسبانية

(١) اعتقد ان معناه « اعمال خالق السيد الذي لا يكل » .

ومستقبلها ، وتحليل نقدي لطبائعها وفضائلها وآلامها مستنداً الى معرفة عميقة لتاريخها وفلسفتها . و « بيوسيد » هجاء عنيف يهدف الى الاثبات انه اذا كان الاسبانيون جديرين بالفتح فانهم لا يعرفون الاحتفاظ بحكمة وعقل بما فتحوه واستولوا عليه ببطولة .

وعبقرية غانيفـه الخشنة اللاذعة تجمع ، من وراء الزمن ، كوفيدو وغراسيان . فهو يملك تلك المرارة الفاجعة التي يملكها لارا ، لارا المتسلطة عليه عاطفة الحياة الفاجعة والمتهافت بارادته على الموت . وقد استطاع ، وهو المرتبط بوطنه ارتباطاً عز نظيره ، ان يستعمل كلمة اونامونو : «لقد سببت لي اسبانية الالم » وذلك حين حلل ، متألماً ، اسباب التفسخ .

ان فكرته غذت كتاب الامس واليوم ، ولا تزال مستمرة في اخصاب افضل الآداب الايبرية .

الفصل السابع

العصر الحاضر

جيل ١٨٩٨ : ان سنة ١٨٩٨ هي سنة حرب كوبا التي نكبت فيها اسبانية . وقد سجل هذا الاندحار ، بالنسبة اليها ، انهياراً لاوهام الامة الجماعية ورجعية في الروح العامة ، وعلى الخصوص عند المفكرين . وفي اللحظة التي انتزعت فيها من الدولة المستعمرة آخر رقعة من امبراطوريتها الاستعمارية ، فان الجيل الجديد بدأ بالاحتجاج لانه يريد ان يكون ، حسب كلمة آزوران « رد فعل عنيف ضد اسبانية المحزنة المنصرفة الى التلذذ بمشاهد القساوة والموت » .

انه رد فعل ضد الاخفاق الكلي لسياسة معينة، وضد الجهل واحتقار الثقافة الاجنبية. فقد غدت اسبانية منفصلة عن تقليدها التاريخي الحقيقي ومطلقة من اوروبا. وهذا الجيل لا يريد السير

وراء ممثلي الجيل الماضي ، كاستيلار في الحكومة ، ونينيز دي أرس او كامبوامور في الشعر . هناك قلق جاء يمسك بالروح الاسبانية التي اندفعت تبحث عن اسبانية اكثر حقيقة واكثر عمقاً . يجب ان يعاد النظر بالقيم القديمة ، وان تعاد للآداب حقيقتها العميقة السديدة .

ومن رد الفعل هذا ولد ادب لفحص الواعي . وقد قضي على الماضي القريب دون رجعة ، بشيء من العجلة غير العادلة او الجدية ، وطُلب من الكلاسيكيين اعادة دروسهم الابدية .

وفن تركيب الجمل المكتظ بضروب البيان اصبح يدور في الفراغ . ولذلك وجب تقلية التعبير الفني وتبديله تبديلاً جذرياً . وما من شك في ان الكتّاب سيحولون وجوههم نحو اوروبا طالبين انواعاً جديدة من التفكير ، ولكنهم سوف يظلون يشعرون بحس وطني حاد جداً يمنعهم من اضاعة اصالتهم العرقية . انه جيل من المتشائمين لانه ولد على اثر هزيمة ، وسيبعث برواده الجدد لاكتشاف اسبانية حقيقية . ولهذا السبب ، وبفضل جهود دون فرنسيسكو جينر دي لوس ريوس ، فان النزعة الكروسية Krausisme قد تأصلت جذورها في حقل كاستيليا الصوفي ، وتأقلمت لتعطي القرن العشرين محصولاً رصيناً من التقدم العلمي والبداغوجي .

وعلى العموم ، فان اسبانية حققت بفضل جيل ١٨٩٨ جهداً

سامياً لتنقذ تاريخها ، وتقطع علاقتها بماضيها الاقرب ، وتدخل ثانية في اطار الثقافة العالمية .

انها ذهبت تعبر عن نفسها في فن المحاولة Essai على الخصوص، وذلك بسبب الموقف النقدي الذي اختاره معظم المفكرين ؛ ثم في الرواية والنزعة الغنائية . وقد ولد الشعر من جديد تحت مظهر رمزي نوعاً ولكن الشكل سيبقى اسبانياً اكثر منه فيما مضى ، وذلك بنهضة الباروكية [1] Barroquisme المتأثرة بغونغورا ، وبالاستعمال المألوف للرومانس الشعبية .

٢ — مقدمو الصف : ميكائيل دي اونامونو Unamuno (١٨٦٤ — ١٩٣٦) الذي قرع ، مع غانيفه ، جرس الوعي الوطني . وهو باسكي عجمته كاستيليا ، وكان استاذاً لليونانية ورئيساً لجامعة سلمنكة ، ومات من اليأس حينما تمزقت البلاد في الحرب الاهلية الاخيرة . انه انساني كامل خبر الكتّاب الكلاسيكيين والمعاصرين ، وروح قلقة متألقة ، وقف طوال حياته معترضاً جميع التطرفات الروحية والزمنية التي تألمت منها اسبانية في ذلك الوقت .

وعدا السنوات التي قضاها في المنفى فانه سجن حياته في سلمنكة ، وكان يمثل فيها روح كاستيليا الحقيقية النشيطة الحازمة والصورة المرسومة بكثير من الدقة لنسر وبومة، والتي

---

(١) الباروكيسم : من الكلمة البورتغالية barroco ومعناها : غريب، شاذ ، غير منتظم . (المترجم)

تجمع كل الخطوط المميزة .

وعالجت مؤلفـاته جميع الانواع الادبية : اشعار مزخرفة عميقة تبرز منها القمم « كمسيح فالازكز » وسبعة مجلدات من المحـاولات ، ومذكرات رحلات ، وعدد من الروايات ، ومسرحيات هزلية منهـا « الاوترو » نادا ماس كي تودو انومبري » . وكان في جميع هذه المؤلفـات معجباً بنفسه جسماً وروحاً ، باحثـاً دون كلل ، في ذاته وفي خارج ذاته ، عن القيمة الفاجعة للحياة التي مضت .

ولكن فكرته تفيض عن الاطر الكثيرة الضيق وتوضح نفسها بكثير من الحرية في محاولة او في مقالة صحفية . وهنـا يكشف عن نفسه ، بمشاغله المثلثة التي ما فتئت تقضمه : مشكلة الشخصية ؛ مشكلة اقدار الناس وخلود النفس لحماً ودمـاً ، في احدى طرفه المسماة « عاطفة الحياة الفاجعة » ؛ واخيراً مشكلة الطبيعة ، مشكلة اسبانية التي يشعر بها شعوراً عميقاً ويمتزج بها بحمية غيور . انه امتلأ بهذا القلق المثلث فردد صوته عمـلاً ملحمياً. ولم يتوقف عن المناداة بالمثل الاعلى الاخلاقي للصوفيين الذي يعارض المثل الاعلى الجمالي لانصار النهضة .

وكتابه « حياة دون كيشوت وسانشو » تفسير ملتهب لكتاب سرفنتس . وقد اوحى اليه ذوق المأساة والمثل الاعلى الموجودان في هذا الكتاب صفحات ذات سمو رفيع .

ونثره مليء بالحركة والحماسة. وقد حرضته نسمة قوية داخلية ذات خط غريب موجع خال من المحسنات الباطلة، ليهتز كقوس موتر ويقذف سهمه في صميم القلب.

آزوران (جوزه مارتينز رويز) : ولد على الشاطىء الاليكانتي[1] سنة ١٨٧٤ . وهو ناقد دقيق وروائي لطيف، كان معلم البيان للجيل الحالي، وفنه مشبع بالاتجاه التصويري الذي سنجده عند معاصره ميرو.

وآزوران في جوهره كاتب محاولات Essayiste . وقد كتب روايات جيدة مثل « انطونيو آزوران »، « الارادة»، «دون جوان» ولكنها مجموعة من الاشارات المقتضبة والتجارب القصيرة، ولا نجد فيها ايقاعاً موجداً . اما لوحاته الصغيرة فتامة، والنسيج الكبير تضيق نفسه به ولذلك لا يسعى اليه . ومؤلفاته كلها تشبه مؤلفات اساتذة فلمنكيين صغار يعرفون ان يضعوا كثيراً من الاشياء في مساحة صغيرة . ومهما كان تأثره كبيراً بالادب الفرنسي فانه اهتم فقط باسبانية التي يتأملها بنظرة كئيبة . ولم يبعد عن ان يقول مثل لارا : « ان الكتابة في اسبانية هي البكاء » . اما مؤلفاته الرئيسية فهي : « القرى »، « كاستيليا »، « طريق دون كيشوت »، « قراءات اسبانية»، « دوينا ايناس » .

---

(١) نسبة الى اليكانت وهي مدينة في اسبانية ومرفأ على البحر المتوسط . (المترجم)

وكان يميل ميلاً خاصاً لما هو عامي وعادي ويكره البطولة والفخفخة ، وهو ذو عاطفة حادة حيال الحياة الانسانية السريعة الزوال وقرب حدوث الموت . وكان يرغب في ان يمسك بهذه الحياة الزائلة وذلك بان يصفها وصفاً دقيقاً بلغة صافية نقية . ويمكن ان يكون شعاره هذه القاعدة البربرية : « اكثر شيء في اقل شيء » .

بيو باروجا (المولود سنة ١٨٧٢) : هو باسكي ريبي انهى دروسه في الطب وكرس نفسه للرواية فقط ، وكان الروائي الممتاز في جيـــله . وقد دفعه مزاجه العبوس القاسي الى رسم المغامرين المعربدين اللاغطين غير المتفقين مع المصطلحات الاجتماعية. ووصف على الخصوص في « زاكالان المغامر » بعض حوادث الحرب الكارلية التي يحب ابطالها وجوها بشكل عنيف . وفي السلسلة التي يدافع عنها سلفستر باروكي خلق شخصاً سوداويـاً من رومنطيقية فوضوية حية . وانحنى ، بحب رقيق ، عـــلى الطبقة الدنيا في مدريد وصورها بشفقة متساهلة .

وروايته الاخيرة ظهرت بعنوان: «مذكرات رجل عمل»، اظهر فيها مزاجه المتحرر القلق ، المتمرد في تفكيره ، المحب للعمل الحركي ، المغرم قبل كل شيء بالشخصيات القوية كصخور ارضه الباسكية . وقد عرف ان يجعلها تتحرك وتعيش في جو من الحقيقة الصارخة في الخطوط التي تحمل دمغته .

رامون دلفال – انكلان (١٨٦٩ – ١٩٣٦) : تخطى

باب المجد مسرعاً بواسطة « انغــــامه Sonates » الاربعة التي تسرد مآثر من يدعى دون جوان الشخصية الفاسدة عن خلوص نية « القبيحة ، الكاثوليكية ، العاطفية » ، وهذه الانغام تؤلف قصيدة مطولة من النثر الرنان المصقول الذي يذكرنا ببرباي دوريفيل وكازانوفا ودانتزيو معاً .

ومؤلفــاته كثيرة تضم قصائد ومسرحيــــات رومانسية وروايات . وقد كتب بعد «الانغام» حوادث الحرب الكارلية، ثم جمع تحت العنوان العام « الكوميديات البوبرية » سلسلة من اللواذع الحوارية العظيمة ، هجائية ومضحكة معاً ، « إغيلا دي بلازون » ، « فوسس دي جستا » ، «رومانس دي لوبوس» . اما « ديفيناس بالابراس » فتمثل لنا دون جوان آخر ريفياً خشناً شرساً ، وشخصية ملحمية حساسة سخية ، عاش حيــــاة شاذة فاجرة في بقاع اسطورية مع سراريه وكلابه وبناديقه .

والقسم الاخير من مؤلفه شاهد على ميل دعابي جديد تماماً : الاسبربانتو . وهذه الدعابة الخاصة، القاسية المزخرفة معاً، تظهر مقدار قرابته من فرنسيسكو دي كوفيدو الراعب المر .

ويمثل فــــال ــ انكلان في جيله نظرية الفن للفن قبل كل شيء . ومنح نثر زمانه مرونة وموسيقية لا نظير لهما .

٣ ــ روائيو اليوم : لا يمكن لاحد ان يعترض ، في هذا النوع ، على المكان الاول الذي يشغله رامون بيريز دي

أيالا . وقد ولد في استوريا وكرس نفسه لكتابة المحاولات والرواية. والقسم الاول من مؤلفاته ، المحتوي على سيرته بقلمه، يمتاز بصفات المفكر والكاتب ولكن أيالا تبنى بعد ذلك تقنية جديدة ، فقد انتقل من الرواية التحليلية ، الغنية بالحدس، الملأى بالحياة ، الى الرواية التركيبية . وبدلاً من ان يفكك الجهاز الداخلي لاشخاصه فانه اعاد تركيبه قطعة قطعة . ان الخلافات عنده ترتكز على قواعد وهمية ومعطيات مجانية طوعية، والواقعي يمتزج بالمثالي .

ولكن مؤلفاته مفعمة بالافكار والبسيكولوجية النافذة ، ومنها : « بيلارمينو اي ابولونيو » ، « شهر العسل — شهر الحقد » ، « تيغر جوان » وكلها ذرائع للوصول الى تأملات متنوعة .

وقد ألف مونتاني وباسكال على الخصوص من خلال اونامونو، واصبح النقد الناعم ملكته المسيطرة ، وهو ايضاً منشىء ذو تنقيح واناقة لا يعتورهما الزلل ، ويملك مفردات مدهشة فيها كلمات ثقيلة بمعانيها البدائية . ان هنا جهداً يشبه ذاك الذي حاوله اناتول فرانس ، ولم تكن السخرية الرشيقة والوقاحة الرجولية السليمة اقل مزايا هذا الكاتب المرموق .

غبريال ميرو (١٨٧٩ — ١٩٣٠ : هو مواطن لآزوران، وقد وضع في الشكل سطوع مسقط رأسه المتألق ، وللمناظر الريفية من الاهمية عنده اكثر مما للاشخاص التي خلقها ، اذ كان

يحس فيهـا بالجمال المضاعف ، بحساسية جعل منها مصدراً لجميع تأثراته وقبض عليها بكل كيانه . والرواية عنده تستطيع الاستغناء عن العمل والحكاية . انها حالة نفسية مشروطة بالبيئة التي يعبر عنهـا ميرو بلغة قيمة معطرة بكل عبير الارض . و « كتاب سيغانزا » و « ابونا القديس دانيال » ، و « الاسقف المجذوم » قصائد نثرية فيها المجاز عمليّة حساسية وتأمل ؛ و « صور عاطفة السيد » كتاب يفضله ميرو على غيره ويمثل عنده جهداً خاصاً لانه هـاج عنده سطوع الطقوس ، وغذى تأثره بمأساة المسيح الانسانية ، ورفع فيه نصباً فاخراً من البناء الغريب على عاطفة الحواس وعلى مجد لغته السابحة في الموسيقى .

فيسانت بلاسكو ايبانيز (١٨٦٧ - ١٩٣٠): هو القابض على الرواية الواقعية في وجه الفنانين . وكانت شهرته العظيمة خارج اسبانية لا تتلاءم وقيمته الحقيقية التي هي مع ذلك كبيرة. ومزاجه الفالنسي الهـائج الطافح بالقوة الجسمانية دفعه الى ان يرسم نماذج منطقته ومناظرها، في سلسلة من الروايات الاقليمية هي افضل مؤلفاته ، وقصصه « لابراكا » ، « زهرة ايار » ، « كانياس اي بارو » تبهر بالوانها الحمراء اللامعة التي تخبىء تحتها فقراً بالتحليل النفسي وضعفـاً بالانشاء . ودراسته السياسية والاجتماعية : « الكاتدرائية » ، « لاهوردا » ، « لوس مويرتوس مندان » هي قوية ولاذعة . و « سانغري اي آرينا » تدخلنـا بلطف الى العالم المبرقش بالثيران . و « لوس كوارتو جينيت

دل ابوكاليبسيس » و « مارنوستروم » نشرتا اسم بلاسكو في العالم كله . فقد عرف ان يقص ويجتذب ويقنع ويصور اعصار حياة العمل الجموح . ومخيلته لا حدود لها ، وخواطره لذيذة الطعم قوية . ان بلاسكو هو مزاج قبل كل شيء .

وهناك روائيون آخرون حصلوا في ايامنا على كثير من القراء . ومن بينهم رامون غومز ديلاسرنا (ولد سنة ١٨٩١) الذي يمثل الشبيبة الاوروبية منذ وقت طويل . وقد ابتدع ما يسمى « لاغريغريا La greguería » وهي ملاحظات قصيرة لاذعة حول الناس والاشياء ، مقتضبة تهدف الى عمل المفاجأة وتتوصل اليها على الغالب . وهذه الحساسية بالاشياء ، الخالية من كل نظام وتقليد ، تتصل بالقريحة المتوقدة المتفلتة ، قريحة الهجائين امثال كوفيدو والشعراء امثال لوب. ورامون، كما يدعوه الجميع ، هو الممثل الاخير لادب المقهى الذي عرف في اسبانية نجاحاً مستمراً ذا دلالة .

٤ — **التطور الروحي المعاصر :** انه لغريب هذا العصر الذي انتقل من نضج اونامونو الى ظهور فدريكو غارسيا لوركا. ويستطاع ملاحظة فترة توقف فيه ، نوع من القطاف ، او امر دفع جديد للقيم الروحية والمؤلفات . وما الذي يدهش في ذلك ما دامت هذه النهضة الثانية ، اللاحقة لنهضة سنة ١٨٩٨ ، هي ذات جوهر جامعي ؟

ان الروائيين والشعراء ، وكتّاب المحاولات والنقاد، الذين

جاؤوا بعد آزوران وباروجا وفال ـ انكلان ، هم باكثريتهم اساتذة . ودورة المؤلفات الكبرى تبدو انها تامة . والكتّاب الذين يناهزون الستين من العمر قد اعطوا افضل ما عندهم . ولهذا نرى من الموافق ان نحدد ونصنف . ولكن هناك قريحة غنائية شعبية قد تفتحت وتدفقت ، في الشعر والمسرح ، وبصورة رئيسية مع غارسيا لوركا .

وهذا التطور الذي بدأ بطيئاً اخذ بالتسارع ، وتحدد تبديل النظام في لحظة . فبدأنا منذ سنة ١٩٣١ نعرف المؤلفات الرئيسية التي انتجها العصر : دراسات اورتيغا اي غاسيت Gasset ، روايات بيريز دي ايالا ، وروايات ميرو التي اختفت قبل الاوان ، ومؤلفات اوجينو دورس الكاتالانية والكاستيلية . وهكذا تقررت نماذج ادبية ، وفتحت سبل غير منتظرة ، وخلد رجال اول القرن ، وعاش من اتى بعدهم على قوة رميتهم . ولما كان جهد السنوات الاخيرة منتجاً فقد باتت الصدمة المحيية منتظرة . اما الشيء غير العادي في اسبانية فهو ان الكتّاب بكليتهم تقريباً ينتمون الى الطبقة المتوسطة . وكانت بدايتهم سريعة التأثر ، فاستطاعوا بسيرهم على نسق بيريدا وكلاران ان يروا الحياة تسير امامهم دون ان يتزجوا بها ، او انهم طوفوا في العالم الواسع على نسق الدبلوماسي جوان فاليرا .

انهم حريصون على المعرفة والاحساسات الفنية ولهذا هذبوا التعبير ، وشذبوا الشكل ، وثقفوا الفن للفن . ومن ناحية اخرى

فان الذين ينتمون منهم الى الجامعة قد اشتركوا بفضائل والخرافات أمهم Alma Mater ، من حس نقدي لاذع ، ونقص في النفس والسخاء الروحي ، وخوف من التجديدات الجريئة .

وقد بعث الانتقال من الملكية الى الجمهورية آمالاً كبيرة واظهر بعض المؤلفات الوضعية، والتقليد الكبير «لمؤسسة التعليم الحرة » الذي نذر سانز دل ريو وفرنسيسكو جينز دي لوس ريوس له حياتهما قد تلقى تكريساً رسمياً . وفتحت جامعة امية في سانتندر، وبدأت اسبانية العلمية تساعد العلم الاوروبي .

وهذا الجهد من الثقافة غير المنظمة تقريباً لم يُحتفظ به بسبب الظروف . والحرب الاهلية لم تستطع الا ان تنمي ادب المعارك المفرط الذي استمد لهجات الرومانسيرو في القصائد الشعبية ذات السير الملحمي ، تلك اللهجات التي اخذتها حالة الاشياء عند الجوغلار المعاصرين .

وقد اغدقت الرواية اثارها بكرم يبدو معه مؤلفوها اليوم انهم أصيبوا بالاعياء ، وكان تطورها منذ ١٨٧٠ جميلاً بحيث تستحق الاشارة الى غناها وقيمتها . والثلث الاخير من القرن الماضي رأى مؤلفات بنيتو بيريز غالدوس المرموقة، هذا الكاتب الذي لم يهتم احد بعد بدراسة جهده الواسع ؛ ومؤلفات جوزه ماريا دي بيريدا الذي اعطى العاطفة الاقليمية معنىً جديداً ؛

ومؤلفات كلاران والكونتس دي باردو بازان الناقدين الجريئين والروائيين المخصبين .

ولكن تأثيرهم أحدث ، عند بدء القرن الجديد ، مواهب جديدة تعالج في كتب ذات شكل اصيل مواضيع تصورية لم يفكر الآتون قبلهم بهـــا . وبعد برقشة بلاسكو ايبانيز ، وموسيقى فـال ـ انكلان ذات الالف لحن ، وسرد باروجا الرشيق ، يظهر ايجاز أيالا ؛ انه العمق بعد التبديد . وهنـاك مهواة بين مشاغل الاسبان الفكرية سنة ١٨٩٨ وبين اسبان اليوم . اما النزعتان الاقليمية والواقعية فقد استمرتا في اعطاء مؤلفات ذات الوان حية يجذب بريقها الاجانب .

ولكن الكتّاب الشبان ذهبوا يبحثون عن معنى اكثر انسانية خارج الحدود ، ونقبوا عن الثروة الادبية في البـــلاد المجاورة . ولكن فقدان الجنسية هذا لن يشكل خطراً بـل سوف يقود الى تصوير اشخـاص اونامونو الذين ليسوا هم عصباً ولا دماغاً اذا كانت قراءة المؤلفين القدمـاء لم « تؤسبن » ثانية اولئك الطوّافين في اوروبا واميركا .

والرواية الاسبانية ، وهي عالمية في جوهرها ، تضم التحليل النفسي بشكل اقرب مما سبق . ولكن مؤلفيها قد تعلموا ، وهم مواطنون اسبانيون ، ان يحتفظوا على ارضهم بأكثر مما كانوا يظنون . ان تقاليدهم يمكن ان تتبدل ولكنها تستمر ، فاسبانية لا تستطيع ان تقطع علاقاتها بماضيها .

٥ ـ غنائية اليوم : اننـــا نؤمل ان لا يخفف شيء من عودة الشعر البديع الذي استطاعت اسبانية الامس ان تفتخر به ، ذلك الشعر الذي سيغتني ويفيض بذكرى الساعـــات الفاجعة الزائلة . ان التيار الكبير المضطرب للكاتب النيكاراغي روبن داريو (١٨٦٧ – ١٩١٩) قد حمـــل في بدء القرن العناصر المخصبة التي سيستعملها الشعر الوطني ، وذلك بتحويلها . ان هنالك غنى في الاساس والشكل، واوزاناً مجهولة، ومؤثرات لا تُشرح ، وجرأة جذابة ، تختلط كلها في كؤوس الشريان الوطني التقليدية .

ومؤلفات روبن ، كما كتب جان كاسُو ، « تفتح النوافذ ، وتسجل الانفصال عن النزعة الاكاديمية ، وتتيح للشعر الكاستيلي ان يستعيد وعيه بنفسه وبتقاليده ومستقبله ، وان يفتح لنفسه طرقات جديدة » .

جوان رامون جيمينيز Jemenez (١٨٨١) ذو الغنـائية العميقة التي استمر بهـــا بشكل طبيعي . وقد تلقى من روبن موسيقى وفناً يمثلان المؤثرات الاجنبية . ولكن القالب وُجد مرة ثانية فملأه باكتشافات شخصية او مكتسبة اخذ عددهـــا يتزايد دون انقطاع . وهو حساس، زاخر ، ملون ، حلل نفسه في قصائد قصيرة ، مجردة ، عفيفة ، ذات جلاء ورونق احياناً . وقد مـال ، رغم جميع ما يملكه من صفات الوفرة والتموج ، نحو تجريد ثابت لا يخسر النسمة ولا الفتنة . وبذلك « تكستل »

– اصبح كاستيلياً – واجتمع بانطونيو ماخادو الذي يكبره ببضع سنوات ، والذي بحث ، وهو تلميذ لروبن ، الموضوع الصرف برتابة كئيبة يائسة ليمرن موهبته المعجونة من العذوبة الفرنسيسكانية والعمق الصوفي . وانطونيو ماخادو (١٨٧٥ – ١٩٣٩) الذي امن له كتاباه «سوليدادس» و «كامبوس دي كاستيليا» شهرة اسمه، يرتاح منذ زمن قليل في مرفإ كوليورس Colliours الروسيوني الصغير حيث فاجأه الموت .

وقد القى مع جوان رامون جيمينيز البذار الذي نبت وارتفع بشكل رائع، حول علم غونغورا او تحته . وقد اثبت تلامذتها شخصيتهم رغم التشتيت المتتـــابع في الحرب الاهلية الاخيرة. فجيراردو دييغو الذي لم يكفّ نجمه عن الارتقاع في الفلك الشعري تآخى عمله التقليدي ، المغنّى السهل ، مع انجاثه عن فن اكثر نقاوة واغلاقاً . وجورج غيلن وبدرو ساليناس يتقدمان ايضـــاً نحو كمال فكري مجهد تدق فيه الملاحن حتى النهاية. ورافايل ألبرتي الذي جنى بكتابه «مارينيرو ان تييرا» البهاء المنسجم لقريحته التي لا تنضب ، بعد ان كرس وقتاً للسريالية الاكثر جموحاً ، يبدو انه وجد تحت صدمة الحرب نفساً تلقائية تعبر عن ذاتهــا في رومانس ذات ايقاع قاس مليء بالصور. واميليو برادوس اغترف من الملحمة الدامية حمية شديدة يائسة تكشفت في اشعار شعبية جميلة . ومانويل ألتولاغير عاش بدوره رصيناً ناشطاً باحثاً عن نفسه بمهارة ، في غنائية حية حائرة.

ولكن فدريكو غارسيا لوركا (١٨٩٨ - ١٩٣٦) بقي اكثر شعبية من الجميع ، ويظهر عمله الابتر الى اية درجة كان المتحدر الوحيد الصحيح من لوب الكبير . ان العصر الذهبي لم يعرف حمية وطنية اكثر غرابة وسطوعاً وخصباً . والطبيعة الاندلسية بضجيجها وروائحها وتألقها تشع في جميع قصائده كما كانت قبلاً ارض اسبانية بكاملها في انسكابات « وحيد عصره » الغنائية. ولكنه لوب المألوف، الريفي، المتأثر بحساسية بسيطة لا تنضب ، حساسية الحقول والعرائش والبهائم والفلاحين البسطاء . كل هذا يبدو في قصائد غوركا مع الطعم المبهّر بالقرنفل الاندلسي، ولهجة الفلاح الاسباني المزأزأة - لفظ الجيم كالزاي - وتذوق الموت والخوف منه .

وانتقل لوركا دون جهد ، كما فعل لوب دي فيغا ، من الكتاب الى المسرح . وقد اتضحت حدة ذهنه الشعبية بمزيد من السهولة على افواه اشخاصه المباشرين الذين شرع في خلقهم لمسرح مجدد . ان « يرما » (المرأة العاقر) و « عرس الدم[1] » تعطيان المثل على مسرح شعري جديد يمتزج فيه عنصر المسرحية الدرامي والكوميدي بغنائية الشكل امتزاجاً كاملاً .

ومن الصعب جداً ان نحدس بمصير الغنائية الاسبانية القريب . ولكننا بدأنا نشعر بتأثير لوركا على شعراء اليوم ،

---

(١) راجع الترجمة التامة لهذه المسرحية والدراسة القيمة التي قدمها بها الاديب الدكتور علي سعد .

ونشير من بينهم الى مؤلفات ادريانو دلفال ذات اللحن الرعياني والمفعمة بكل ما في غرناطة من سحر .

اما المجلات الشعرية المحتجبة التي فرضت تأثيرها الجميل على جيل الشباب ، مثل « لارفيستا اوكسيدانتا » و « كروز دي رايا »، فانها بُعثت حية في النشرة الحالية المسماة «اسكوريال».

٦ — المسرح : ان المسرح ، الذي كان يمكن للوركا ان يجدده لو بقي حياً ، غائص حالياً في الاشكال الرتيبة التي خلفها له القرن الماضي . واعظم كتّاب المسرح شهرة في هذه الايام هو جاسنتو بينافنتو المولود سنة ١٨٦٦، والحائز على جائزة نوبل سنة ١٩٢٢، فقد كتب اكثر من مئتي كتاب تعالج جميع انواع المسرحية ، وهو ملاحظ بصير بالطبائع والانفعالات وتعوزه القوة والاصالة . ولكنه يعرف بشكل مدهش ان يتبع جميع التيارات الاوروبية ويلائمها لمسرحه . اما مؤلفاته فتعكس فن كتابة المسرحية في هذه الخمسين سنة الاخيرة : مسرحيات رمزية تشبه مسرحيات كوريل Curel او مترلنك ، وقلق إبسني — نسبة الى ابسن المؤلف المسرحي السكنديناڤي — ودعابة تشبه دعابة برنارد شو ، وخشونة المسرح الكاتالاني ، وتصنع بورتوريكو العاطفي ، وسطوع باتاي[1] ، وزوابع بنستاين . كل هذا يرشح منه برشاقة وذكاء لا نهاية لهما . وبمهارة بينافنتي المدهشة ، وبفضله وسع المسرح الاسباني افقه واغنى مواضيعه

---

(١) هنري باتاي: مؤلف مسرحي فرنسي ولد في نيم (١٨٧٢–١٩٢٢).

وطريقته. وليس الذنب ذنبه اذا كان الكتّاب الذين عرفوا ان يستفيدوا من دروسه قلائل .

وافضل مسرحياته هي : « المحبوبة السيئة » ، وهي مأساة فرويدية ذات قوة جميلة اخاذة ، و «لوس انتريس كريادوس» ، وهي ملهاة على النسق الايطالي حملت اليه الشهرة .

فريغوريو مارتينز سييرا (١٨٨١ — ١٩٤٨) : مؤلف حاذق ، يعرف هو ايضاً المسرح الاجنبي ، وقد كتب بعض المسرحيات الناجحة ذات الانشاء المتين .

والاخوان سيرافان وجواكين الفارز كنتيرو حملا الى المسرح الظرف الاندلسي بكل مـــا فيه من شعر وفتنة سهلة وعواطف تقليدية . وكل شيء محبب عندهما ، من المواضيع ، الى الانشاء ، الى الجو . وتردد ذكرهمـــا دائماً في مسرحيات صغيرة نالت استحساناً وتصفيقاً دائمين .

امـا المسرح الشعري فلا يعد سوى **فال — انكلان** الذي يتمتع بامجـاد اخرى ، **وادواردو موركينا و فرانسيسكو فيلاسباسا** . وهذا قد استعار من زوريللا شكله المائع السهل، واستعار مواضيع مسرحياته من تاريخ بلاده .

اما موركينا فهو اكثر قناعة ولكنه خارجي واكثر قرباً من تقليد لوب الكلاسيكي . وكتابه « ان فلاندر سيهابييستو إل سول » هو افضل مؤلفاته التاريخية .

ومن بين المؤلفين الشبان الذين حملوا الى المسرح مزاجـــاً اكثر اصالة وطمعوا بالخروج من المسالك المطروقة نذكر اسم **أليخاندرو كازونا** الذي عرفته سيرينا فارادا تلميذة بيرانديللو، ومن نويسترا ناتاشا على الخصوص . وهو شاعر ومسرحي حاذق في « لاداما دل ألبا » و « لوس اربولس مورين دي بي » . انه سيد المسرح الاسباني اليوم ، ولا نذكر معه الا جاستنو غرو و م. دي بغماليون ، والشفاليه فارونا .

٧ ـ المحاولة ، النقد ، الاطلاع : جوزه اورتيغـــا اي غاسيت (ولد سنة ١٨٨٣) وهو مع اونامونو اكبر مفكري العصر ، ولكن ذاك اكثر صفاء واشراقاً لانه اقل قلقاً واكثر نزعة جـــامعية . وقد اصبحت جهوده كنزاً فكرياً لكتّاب عصره ، اغترفوا منه مدة طويلة . واقـــامته خمس سنوات في المانيا اثرت عليه تأثيراً عميقاً، ثم ارتد بعد ذلك الى البيولوجيا، واخيراً اصبح مترجماً للمفكرين الجرمانيين الاكثر شهرة امثال سبلنجر وكيسرلنغ واشياعهما .

وبفضله على الخصوص التفت الكتّاب الى عالم الافكار بعد ان كانوا ، لوقت طويل ، يتحسسون الاشيـــاء ويتلمسون الاحساسات. واذا كانت الرواية قد اصبحت فكرية فان شرف ذلك يعود له .

وقد ابدى في «تأملات دون كيشوت» ومجلدات «المتفرج» الخمسة (١٩١٦ – ١٩٢٧) وفي « اسبانية المقصومة الظهر » موهبة

مرنة جداً، مصنوعة من القواعد الفنية، والنمو المتناسق الفصيح، ومن اناقة ظلت الخط المميز لتفكيره وشكله .

انها صفة نادرة في اسبانية . فمؤلفاته تفصح عن عبقرية بنّاءة، حاول فيها ادخال المعنى العميق للحوادث المعاصرة ، واستخراج النتائج العملية منها. وقد اثار حركة فكرية واسعة . اما تأثيره الذي عاكسه عجاج الحوادث فسيحمل ثماره في تشكيل اسبانية الغد .

اوجينو دورس : ولد سنة ١٨٨٢ من اب كاتالاني وام كوباوية، واشتهر بحميته الاقليمية وباسمه المستعار «اكسانيوس Xenius » . وهو فيلسوف ، وناقد نبيه ، وروائي شاذ، نذر حيويته لتحقيق رابوعه المؤلف من الرغبة في المعرفة ، والايجاز، والابتسام ، والفعالية .

واشتهر حين رسم بطريقة مـــاتعة ، وبالكاتالانية ، صورة المرأة الكاتالانية ، تيريز «المغروسة جيداً» . ثم نشر بالكاستيلية كتابه « قاموس المفردات القديمة الغامضة » ودراسات دقيقة نذكر منها « ثلاث ساعات في متحف برادو » و « اوقيانوسية الضجر » .

اما الدقة فكانت من نصيب آزانيا ، وهو كاتب محاولات لامع في « حديقة لوس فريلس » و « مادارياغا » . وامـــا دراساته الاجتماعية والتاريخية فكانت ذات تألق وفطنة .

جوزه برغامان Bergamin — هو صوفي متشعب النواحي ذو نقد واضح متعد بنوع من الانفعال الملتوي التحكمي الذي نلمس فيه اثر اونامونو .

وراميرو دي مزتو Maeztu هو المدافع العنيف المتهكم عن كل معتقد صحيح ، وعن كل سلطة ، وذلك بمزيج عجيب من التناقض والبوريتانية(١) .

اما التاريخ فيعد مؤرخاً كبيراً هو رافايل ألتاميرا العالم القانوني والاجتماعي الذي عكف، بفضوله العلمي الذي لا يكل، على عصور بلاده الكبرى ، وعلى القضايا الحقوقية الكبيرة .

واما سعة الاطلاع فتعد اسمين شهيرين : رامون مينالدز بيدال و امريكو كاسترو . ولم يستطع احد ان يفهم الدور الملحمي للقرون الوسطى مثل بيدال ولا ساعد احد افضل منه بذلك الشعور بالعظمة في دراساته للنصوص ، ومن بين هـــذه الدراسات تلك الطبعة الفاخرة المشروحة « لقصيدة السيد» .

وتلميذه امريكو كاسترو ذو الثقافة الاوروبية الواسعة قرر نهائياً معنى الروائي الاسباني الاول في دراسته العظيمة «تفكير سرفنتس » .

وبعد الهزة الراعبة لهـذه السنوات الاخـيرة فان اسبانية

---

(١) البوريتانية : هي في الاصل نزعة دينية ترمي الى العودة الى الشرائع الاصلية الموجودة في الكتب المقدسة . (المترجم)

الفكرية تمالكت وتنظمت ، وعلى الخصوص وراء حدودهـا ، وتحاول اليوم ، وهي المخلصة لمصيرها المقرر في مؤلفات كتّابها الكبار ، ان تعيد من جديد ، وفوق الخلافـات العابرة ، تلك الصورة الصادقة التي لا تفنى لعبقريتها القومية .

الفصل الثامن

الادب الكاتالاني

١ ــ ان اللغة الكاتالانية الناتجة هي ايضاً من تفسخ اللاتينية العامية تستعمل في قطلونية واندورا وبعض الاماكن الاراغونية . اما مركزها الادبي ففي برشلونة . واللهجات الكاتالانية هي الفالنسية التي يتكلمونها في مملكة بلنسية القديمة ، والميورقية المستعملة في اوخبيل الباليار .

وفي دورها الاول الذي يمكن اعادة تاريخه الى مجمع ريمس (٨١٣) ، اي في العصر الذي بُدىء فيه بترجمة مواعظ القديسين الى اللهجة العامية وتوجيه المواعظ الى الشعب بلغته ، كان هناك ، بالتأكيد ، شعر هجائي ملحمي لم يبق منه شيء . ومواعظ « اورغانيا » هي اولى الشواهد المكتوبة .

وتأثير الشعراء الجوالين البروفنساليين ، وساردي الحكايات

الفرنسيين ، والكلاسيكيين ، هيأ الأداة التي استعملها **رامون لول** Llull (١٢٣٥ — ١٣١٥) . وهو شاعر ممتاز بمرثيته « دسكونورت » (١٢٨٥) ، اعطى بروايته الرمزية «بلانكرنا» واحداً من اعظم المؤلفات الصوفية المعروفة: «الليبر دي لاميك اي لامات» . وانتاجه الموسوعي الذي يضم اكثر من اربعمئة مبحث شاهد على ان اللغة الكاتالانية هي الاولى ، بين جميع اللغات العامية ، التي استعملتها الفلسفة . وبالفعل ، فقد اتى لول بنظريات جديدة حول معرفة الله والعالم ، وجعل من نفسه بطلاً لمنطق شكلي ، واهتم بتنظيم العلوم وذلك بردها الى وحدة اساسية .

وفي العصر نفسه كتب **مونتانر** اخبار جيم الاول حول ارسال روجه دي فلور الى الشرق .

وبعد ذلك بقليل، في القرن الرابع عشر ، نشير الى تأسيس « مجمع العلم المرح » في برشلونة سنة ١٣٩٣ والمتأثر « باكاديمية الالعاب الزهرية[١] » في تولوز . اما التقليد البروفنسالي الزاخر بالمؤلفات الاخلاقية فقد اخضع خطوته للتأثير الايطالي ، وللبتراركية على الخصوص ، مع **جوردي دي سان جوردي واوزياس مارك** (١٣٩٧ — ١٤٥٩) الذي ستنعكس مؤلفاته في كتاب عصر النهضة الكاستيليين .

---

(١) Jeux Floraux وتعني : العاب الرومانيين في شهر نيسان .
(المترجم)

والمؤلفات منها ما هو علمي ، كمؤلفات برنات متج بكتابيه « لوسومني » و « فالتراي غريزالدا » (١٣٨٨) ، ومنها ما هو هجائي ولصوصي ايضاً كمؤلفات الكاتب الفكه جوم رواغ (١٤٦٠) .

فالرواية الكاتالانية اذن ولدت من زواج غريب بين الاقصوصة الايطالية العاطفية وبين رواية الفروسية في الدور البريتوني ، في مزيج من الانشاء العامي والبياني ، فيه شريان واقعي قوي وينقصه كل ما هو فاخر . وافضل من كتب في هذا النوع : كوريال اي غلفا (١٤٥٠) ، لاغلوريا دامور ، وتيرانت لوبلانك الشهير الذي اطراه سرفنتس كثيراً . والنثر الكاتالاني يعد ايضاً كاتباً ذا قيمة ، هو فراي فرنسسك اكزيمانيس الفرنسيسكاني . ومؤلفاته الرئيسية هي : «الكرستيا» حول موضوع التعاليم المسيحية، وهو محاولة في الفلسفة السياسية، و « الليبرو دي لس دونس » وهو نقد للنساء . وانشاؤهما ذو وضوح ومرونة كلاسيكية .

امـا القرن السادس عشر فكان للغة الكاتالانية عصر انحلال عميق ، لان مجد العصر الذهبي الكاستيلي قد لاشى امكانات نهضة كاتالانية ، واصيب الادب الشعبي نفسه بالضربة نفسها . فقد « تأسبن » جميع الكتّاب .

وفي السياسة ، فان حكم الملوك الكاثوليك قد فرض سيطرة ذات مركز كاستيلي على فالنسية (بلنسية) وميورقة وقطلونية ،

اثقلت ايضاً على الادب . ولن نرى شيئاً ، حتى القرن التاسع عشر، سوى اصرار على النثر الفقهي وبعض المظاهر الساذجة من الفن المسرحي الشعبي .

وفي هذا الدور الطويل الذي امتد حتى الثلث الثاني من القرن التاسع عشر ، فان التاريخ الداخلي للغة قد مشى جنباً الى جنب مع التفسخ الادبي . ومعاهدة البيرنه سنة ١٦٥٩ فصلت عن قطلونية نصف مقاطعة الروسيون Roussillon ونصف سردانيا ؛ ومعاهدة اوترخت سنة ١٧١٣ عزلت مستعمرات السارد Sardes .

وحين ضمت قطلونية الى فرنسا سنة ١٨١٠ فان نابليون جعل رغماً عنه اللهجة الكاستيلية لغة رسمية للدولة الاسبانية .

٢ – **النهضة الكاتالانية** : ان الازمات الكبرى التي بلبلت الامة وتيارات الرومنطيقية العمومية انتجت تطوراً سياسياً قوياً . فقطلونية وعت نفسها ومالت الى الافراط في استعمال حريتها في سبيل اسبانية موحدة . وهذه الحركة الاقليمية ، البسيطة في بدء امرها ، قد تطورت بسرعة نحو الاستقلال الاداري وتوصلت الى النزعة الانفصالية ، بعد ان مرت بمرحلة اتحادية اسبانية كانت على وشك ان تفرض نفسها في الجمهورية الاولى سنة ١٨٧٣ . وهذه النزعة الكاتالانية العاملة أشربت جميع الفعاليات الاقليمية وأشعرت بوجودها في الحياة الوطنية في هذه السنوات الستين الاخيرة .

وبالطبع ، فان هناك حركة ادبية جاءت تحصن هذا الميجان السياسي ، وتأكدت النهضة الكاتالانية اول مرة في « قصيدة للوطن » من نظم بونافنتيرا كارل اريبو سنة ١٨٣٣ التي اكتسبت بعد ذلك قيمة مثل اعلى .

ولكن الاستاذ روبيو اي اورس (١٨١٨ — ١٨٩٩) هو الذي اشتغل بهذه المهمة بشكل واع ونهائي . وكتابه « لوغاتير دل لوبريغات » (١٨٣٩) كان سبباً في ظهور جمهور من الناظمين المتحمسين . و « الالعاب الزهرية » في برشلونة انشئت سنة ١٨٥٩ بفضل العالم ميلا اي فونتانال الذي لا تزال دراساته عن الشعراء الجوالين ذات حظوة . وفي ميورقة فان ماريا أغيلو حملت الحركة البرشلونية على عاتقها .

ونال المسرح نصيباً كبيراً في ايقاظ الوعي اللغوي في البلاد ، فعرف فريدريك سولر (بيتارا) نجاحاً كبيراً بمسرحياته الهزيلة القصيرة المكتوبة باللغتين ، اما محاولاته فاكثر رصانة « كأفراح لاروزر » (١٨٦٦) .

وألغي المسرح الكاتالاني سنة ١٨٦٧ ، وتبع الشعب حينئذ بحماسة تلك المؤلفات الشعبية لرسول الموسيقى الكاتالانية ج. انسلم كلافه Clavé الذي اعطاه روحاً مغناة .

وبلغت النهضة ذروتها من سنة ١٨٧٥ الى ١٨٩٥ مع الشاعرين اللذين كرسا لها مؤلفاتهما : فرداغر وماراغال .

موسن جاسنتو فورداغو Verdaguer (١٨٧٧ — ١٩٠٠): من طبقة دنيا وكان كاهناً ثم اختصم مع السلطة الا كايريكية ومـــات بائساً . واستعملت حيـاته موضوعـاً لمسرحية س. روزينيول المسماة « المستيك » .

انه منشد الحقول الكاتالانية ، وعـاطفة الطبيعة هي جوهر شعره الملحمي والغنـــائي . وقد كتب قصيدتين كبيرتين « الاطلنطيدا » و « الكانيغو » . وقد بعثت احداهمـا اساطير انخساف الاراضي الاطلنطيـة حيث ظلت جزر كناريا آخر آثارهـــا . والاخرى نشيد للبيرنه الوثنية التي خضعت اخيراً لقانون المسيح . وهو يتمتع بصفات رسام مناظر قوي ، وبغنى مدهش في اللغة . ويمتزج بتأثر صوفيته الفرنسيسكانية صدق قلب يتكلم ويبكي وينزف دماً . وبفضله اصبحت اللغة الكاتالانية منذ ذلك الوقت اداة ادبية صالحة للتعبير عن كل شيء .

جوان ماراغال (١٨٦٦ – ١٩١١) : كاتب الانتقال الى القرن العشرين وشاعر ذو جدارة كبيرة بلغتي بلاده . وبفضله عادت الرومنطيقية الى ينابيع اكثر صفاء كانت منسية ، الى غوته ونوفاليس . وهو اساسياً ذو نزعة موحدة لايعتبر الطبيعة اطاراً زخرفياً بسيطاً بـــل كائناً حياً يهتز مع جميع عواطف النفس . ونذكر من مؤلفاته : « إلكانت الروحي ، نوزيكا ، الالحان الهوميرية » .

والرواية قدمت مؤلفات عظيمة مع نرسيس اولر (١٨٥٢–١٩٣٠) الذي فجّر ، بالكاتالانية ، تأثيرات بيريد المنظمة ، والطبيعين الفرنسيين . امـــا طرفة هذا النوع فهي دون شك « وحدة فكتور كاتالا » .

وعاد المسرح الكاتالاني الى الظهور بفضل جهود انجل غيميرا Guimerà (١٨٤٩ – ١٩٢٤) وقد القى عنه التأثير الكلاسيكي الكاتالاني والشراسة الشعرية والميلودرام المفخمة واتجـــه نحو المأساة الريفية الحديثة . ومسرحية «لابوجا» (١٨٩٠) تسجل هذا الانتقال الذي انتهى بمسرحية « تيرابيكسا » ، وهي طرفة في بساطتها ، كتبت بنثر بديع ، وصدق وواقعية ، ومفعمة بشاعرية ريفية مؤثرة .

وغيميرا وفرداغر هما كاتبا الثلث الاخير من القرن التاسع عشر . فقد اعطيا مواطنيهما الوعي بقيمة اللغة العـــالية التي يتكلمونها ، ولمسا الشعب في اعمـــاق ذاته وبلغا شهرة عالمية بكتابتهما الكثيرة الدلالة .

٣ – **العصر الحاضر** : كان القسم الاول من القرن لقطلونيـــة عصر قلق روحي وسياسي . فديكتاتورية بريمو دي ريفيرا المفرطة في التساهل كلفتها بضع سنوات من الكبح المثالي الذي انتهى بالتكريس اللغوي الرسمي الذي عرفه النظـــام الكاتالاني سنة ١٩٣٢ . ومجيء الجنرال فرنكو لاشى هـذه الميزات واوقف كل فعالية فكرية ذات تعبير كاتالاني . ولكن

هل يحمل السلام الوطني تجديداً ؟.. هذا هو سر الغد .

وكان المسرح حتى ذلك الوقت قد استولى تماماً على الجمهور بواسطة مسرحيـــات سانتياغو روزينيول النثرية ، دوده[1] قطلونية . وهو قاسٍ وحساس معاً ، ومصور وكاتب موهوب جداً، ينظر بعين الاعتبار الى هزليات البورجوازية الصغرى التي تلين القلب؛ وايغنازي ايغلازياس الذي اهتم بالمواضيع الاجتماعية واعادها قوية في « إلس فلس » و « الغربان» ، الخ.. وكذلك بوس اي باجيس وافضل مؤلفاته كتاب «لانديا دي بودس ».

والمسرح الشعري وجد ممثله الاكثر شهرة في شخص جوزيب ماريا دي ساغارا الذي نقل الى المسرح التاريخ الراهن والحياة الحقولية ، واحيت مؤلفاته الغنائية الاساطير التقليدية ، واهمهـا « الكونت ارنو » ، « إل مال كاشادور » ، واعطت البـلاد الملحمة التي تنقصها .

واستهدف التطور الادبي غنى مستمراً بالتفكير : فقد نما النقد واشتهر به كتّاب بارزون مثل مانويل دي مونتوليو وكارل ريبا . وتضاعفت الترجمات : كترجمة التوراة التي قام بها رهبان مونت سيرات البنديكتيون ، وترجمة الكلاسيك الاغريقي واللاتيني في المجموعة البديعة « برنات متج » . وعُرف الكتّاب الاجانب وقلدوا . وشرع العالم اللغائي بومبه فابرا

(١) الفونس دوده الكاتب الفرنسي .

وتلاميذه بتطهير اللغة العلمي .

وهذا الغنى مدين في قسم منه لـ **غلوساري دوجينيو دورس** (اكسانيوس) الذي ظل وقتاً طويلاً انجيلاً للشبيبة الفكرية . وعكس الشعر الكاتالاني بدوره جميع تجديدات العصر الروحية : الكلاسيكية الجديدة الكارديكسية[1] والنزعـــة الدانتزيوية — نسبة الى دانتزيو الكاتب الايطالي الاشهر — والنزعة الرمزية الفرنسية بعد صدمة البرناس . وكل هـذا موجود في الاناشيد الملحنة لجوزيب كارنر الذي جنى جميع اصوات العالم و «قطلنها». وهناك **لويز بيكو** و **جواكيم فولغيرا** اللذان يجب ان نضيف اليهما كتّاب مدرسة ميورقة امثال جوان ألكوفر وغابريال ألومار ولورنس ريبر . وصدحت الكاتالانية ايضاً ، في الناحية الاخرى من البيرنه ، في مؤلفات جوزيب س. بونس الشعرية الروسيونية الريفية .

ويظهر نثر اليوم في الرواية على الخصوص ، إطـــار مريح يستطيع الكاتب أن يدخل فيه التيارات الكبرى للآداب العالمية بنقلها الى المعنى الكاتالاني ، روحاً وشكلاً .

---

(١) نسبة الى كارديكسي Carducci الشاعر الناقد الايطالي، ولد في فال دي كاستللو (١٨٣٥ — ١٩٠٧). وقد قام ضد الرومنطيقية ووجه كل اعتنائه لجمال الشكل ، وهو ذو تأثير كبير في الادب الايطالي المعاصر .

(المترجم)

ومن الصعب ان نقرر منذ الآن تصنيفاً للقيم الموضوعية ، ولكن بيري كوروميس ، وبرودنسي برتوانا ، و س. بويغ اي فريتو ، وجوزيب بلا ، وكارل سولدافيلا هم الذين يجابهون تجربة الزمن افضل من غيرهم كما يبدو .

انتهى

فهرست

١٠٧/٣/٥٦

مطبعة قلفاط — بيروت



مجموعة الآداب العالمية

		ق.ل.
١ ـ الادب الهندي	ترجمة: بهيج شعبان	١٥٠
٢ ـ الادب الاسباني	» » »	١٥٠
٣ ـ الادب الصيني	قيد الطبع	
٤ ـ الادب الايطالي	» »	
٥ ـ الادب الالماني	» »	
٦ ـ الادب الروسي	» »	
٧ ـ الادب الفرنسي	» »	
٨ ـ الادب الانكليزي	» »	
٩ ـ الادب الاميركي	» »	
١٠ ـ الادب السكندنافي	» »	

تطلب هذه الكتب من :

وكيل الدار في العراق السيد محمود حلمي ـ بغداد
وكيل الدار في افريقية السيد محمد خوجه ـ تونس
وكيل الدار في المملكة العربية السعودية المكتب التجاري للتوزيع
في لبنان ـ شركة فرج الله للمطبوعات ودار بيروت

الثمن : ليرة ونصف